ثقافة التبعية

المنهج - الخصائص - التطبيقات

دكتور حلمي محمد القاعود







الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥

المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١

الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:

دار الاعتصام

للطباعة والنشر والتوزيع

الرحماني عبد الكريم

35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39

دكتور حلمي محمد القاعود



ثقافة التبعية

المنهج - الخصائص - التطبيقات

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس: ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

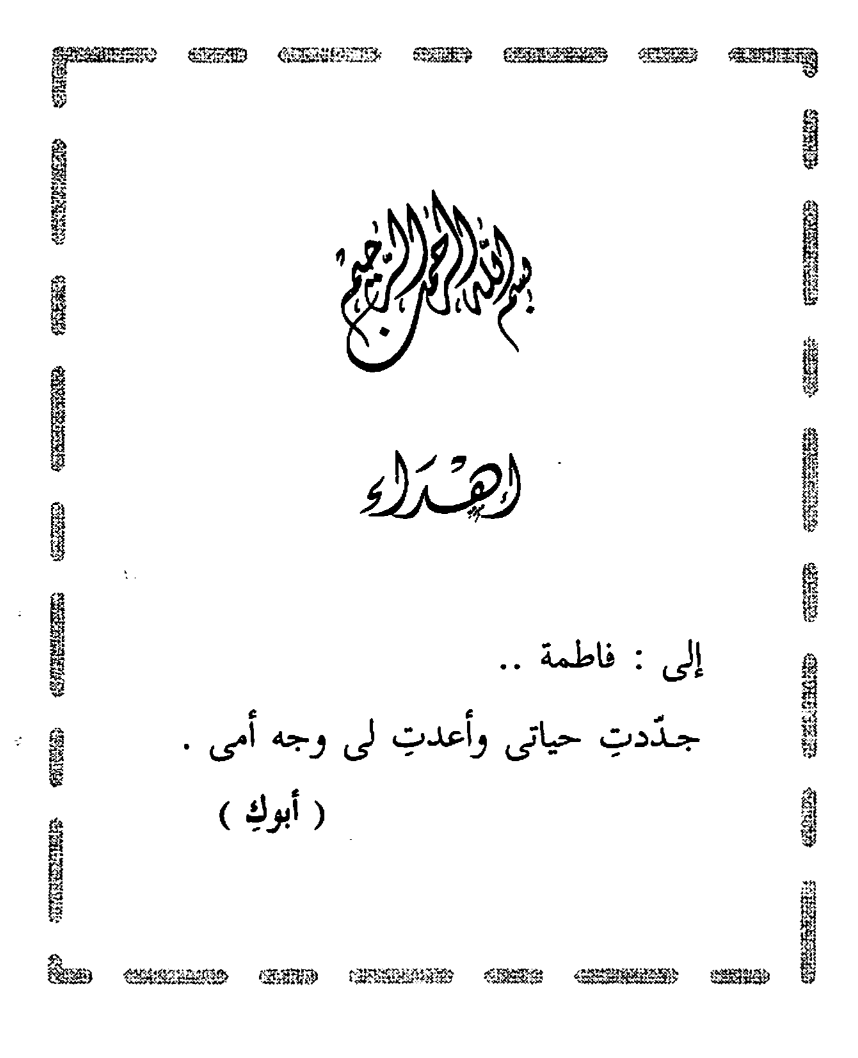
وكيلنا في المملكة المغربية:

دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع

الرحماني عبد الكريم

35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس). الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39





إلى : فاطمة ..

جدّدتِ حياتى وأعدتِ لى وجه أمى .

(أبوكِ)

توطئــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.. وبعد:

فإن الثقافة السائدة فى بلادنا اليوم، لا تعبرّ عن هويتنا وشخصيتنا الحضارية بطريقة صحيحة، وقد تنكرت لكل ما هو مضىء ونبيل فى تراثنا وتاريخنا، وفرضت أو تحاول أن تفرض علينا؛ نمطاً شائهاً ومتخلّفاً ورديئاً؛ استوردته من بلادٍ معادية لأمتنا أو غير متعاطفة معها على الأقل. وفى كل الأحوال يحاول السادة الذين دفعت بهم الأقدار ليتحكموا فى مقدّراتنا الثقافية أن يروّجوا للثقافة المستوردة والفكر الهجين؛ بالإرهاب الفكرى والتضليل الثقافى، مستخدمين الآلة الإعلامية الضاربة التى تهيمن عليها السلطة .

الهدف الرئيسى للثقافة السائدة ونجومها؛ يكمن فى اقتلاع الإسلام، ومطاردته فى كل مكان بوصفه الأساس الثقافى لأمتنا، والهدف الثانى يتمثل فى إحلال النمط الغربى الشائه المتخلف الردىء - دون الأنماط الناضجة - مكان الإسلام، وتكريس التبعية الثقافية التامة، والذيلية الفكرية الشاملة.

وقد جرت فى الفترة الماضية مياه آسنة كثيرة ، صبّت فى نهر الثقافة العام ، واستغلت مناخ العنف والعنف المضاد ، وأعلن رموز الثقافة السائدة عن تبعيتهم الكاملة للغرب والانتماء إليه ، وذهب البعض فى الإعلان عن ذلك مذهباً بعيداً حين طالب بعدم التساؤل عن الهويّة (عنوان الحضارة الإسلامية) بل عدّها نازية !! ورفع القوم شعارات برّاقة كان أشهرها التنوير والاستنارة والتقدم والتقدّميّة ، فضلاً عن شعار العلمانية التى تعنى فى مفاهيمهم تنحية الإسلام عن الحياة وإحالته على التقاعد .. ثم بَعَثَ القومُ مقولاتٍ قديمةً وأفكاراً باليةً ؛ وقف أصحابها ضد الإسلام ، واستقلال الأمّة (مقولات سلامة موسى ، وعلى عبد الرازق ، وشبلى شميل على سبيل المثال) .

وتمخضت الأمور فى النهاية عن ربط الإسلام بالإرهاب ، والمسلمين بالعنف ، والتدين بالتطرف ، وتطبيق الشريعة بالدم ، والوحدة الإسلامية بالعمالة ، واستقلال الأمة بالجمود ، وبعث الروح الإسلامية بالتعصب ، وأسلحة الدولة بالفتنة الطائفية ، وإقامة العدل بالسعى لتقويض نظام الحكم ، والحجاب بالتخلف ، والحرية بالردة ، والديمقراطية أو الشورى بتمزيق الوطن ... إلخ !

فى هذا الجو الغوغائى الإرهابى ، ساير الكثيرون الموجة الصاخبة ، وركبها الانتهازيون وأصحاب المنافع ، ومن أنجبتهم

الوضاعة .. وكان حائطهم الواطئ الذى قفزوا عليه : الإسلام !

وكان من المفارقات القاهرة ألاّ تتاح للمدافعين عن ثقافتنا الأصيلة وهويتنا الحقيقية فرصة التعبير عن الحقيقة الغائبة ، والذين استطاعوا التسلل بأصواتهم الخافتة لم يسمعهم إلا القليلون ، وكان عرضة للّدغات الآثمة والتحريض السافر الرخيص .

ومادة هذا الكتاب من تلك الأصوات الخافتة حيث نشرت المقالات التى يضمها متفرّقة فى منابر محدودة ، وكنت أحاول من خلالها اللهاث وراء الأحداث والمقولات الشاذّة التى أفرزتها ثقافة التبعية السائدة ، وصبغت بها وجه فكرنا وأدبنا المعاصرين .

وكان مقصدى بيان الحقيقة وكشف الزيف ، وإعلان الانتماء لثقافة الأمة ورفض ثقافة التبعية . وكان هدفى فى النهاية أن يعلم الجيل الجديد الغائب أو المغيّب عن معرفة الإسلام ، حقائق دينه ومفاهيمه ومقاصده وثقافته وتراثه ، وأن يواجه الهجمة التغريبية الشرسة بمنهج مستقيم قوىّ ، لا يخضع للتضليل ، ولا يتراضخ للزيف .

إن قوماً يقصرون استنارتهم وتقدميتهم على مهاجمة دين الأمة ورموزها بعد أن تحطمت النظريات التى يروّجون لها ، لهم قوم فقدوا الصواب وعميت عليهم الأنباء وانحرفوا عن طريق الرشد .. ولا ريب أن هناك قوىً شريرةً تُحركهم وتغدق عليهم مكايدة

للإسلام وأهله ، وترحبّ بهم فى الغرب بوصفهم مندوبين لهم فى بلادنا المستباحة ، مما يعنى أن ثقافتهم التى يبشرون بها لا تصبّ فى صالح.الوطن ، ولا تبنى من أجل الأمة ، ولا تعطى إلا للغرباء .

إن ثقافة تحارب الغيب أو الخيال الغيبى كما تسميه ، لهى ثقافة شاذة وهابطة ، وعندما أعلن الوزير المسئول عن الثقافة فى بلادنا عن منهجه ذاك ، كان يضرب ثقافتنا الإسلامية التى تؤمن بالوحى ، وبوجود الله فى صميم أساس من أسسها الراسخة . والطريف أن هذا الوزير لم يؤلف كتاباً ، ولا أعرف له فكراً مكتوباً إلا تصريحاته الصحفية المصادمة لعقيدة الأمة ومنهجها ، وقد أثارت عليه الأقلام الشريفة وما زالت .

ذات يوم عينت الحكومة فى عهد الرئيس السابق أنور السادات ، وزيراً للثقافة لا علاقة له بالثقافة ، فانبرى له أنصار الوزير الحالى ونجوم الثقافة السائدة تجريحاً وهجاء بسبب كونه لم يؤلف كتاباً .. والغريب أن هؤلاء « الأنصار » لم يوجهوا انتقاداً للوزير الحالى بالرغم من أنه لا يعدو أن يكون موظفاً فى الثقافة الجماهيرية دفعت به المقادير للعمل فى ظل بعض المسئولين .. وبعيداً عن السيرة الذاتية للوزير المذكور ، فإنه لا يحمل مؤهلاً أدبياً أو معنوياً يؤهله لهذا المنصب الخطير الذى يصنع مخ الأمة أو ذاكرتها .. صحيح أنه رسام ولكن رسومه التجريدية تجعله فى

ذيل من ينتمون إلى الفن التشكيلى بصفة عامة .. ولا أظن منطق العلاقات العامة الذى جاء به إلى منصبه يؤهله لصنع ثقافة أمة إسلامية عريقة وشعب مسلم عريق مثل الشعب المصرى .. وكنت أتمنى أن يتأسى صاحبنا بالوزير الفرنسى الراحل « أندريه مالرو » ، فبالرغم من يساريته إلا إنه كان حريصاً على قيم أمته وتراثها ، وقبل ذلك عقيدتها ، وهو ما لم يفعله نظيره المصرى .

لقد مر بوزارة الثقافة المصرية عدد لا بأس به من الوزراء ، كان فيهم المثقف والعالم والإدارى والسياسى ، وكانوا على اختلاف مشاربهم ورؤاهم يملكون وعياً واضحاً بمطالب الأمة الثقافية ، على تفاوت الاجتهادات والسبل . أما الوزير الحالى فلا يملك إلا الرغبة فى التدمير ، والتنكيل .. تدمير التراث الإسلامى وغير الإسلامى ، والتنكيل بروح الإسلام الثقافية ومعطياتها العميقة على النحو الذى يشير إليه هذا الكتاب من خلال ممارسات الوزير ، وأعوانه الذين جعلهم رموزاً للثقافة السائدة .

إن مادة هذا الكتاب تعنى ببيان مفهوم التبعية الثقافية أو الثقافة العار أو الغش الثقافى ، كما توضح الخصائص والممارسات لثقافة التبعية ، من خلال الواقع الفكرى والأدبى الراهن ، أملاً فى إصلاح الحياة الثقافية ، وسعياً لكشف النباتات المتسلّقة فى الفكر المعاصر ، وانطلاقاً نحو ثقافة إسلامية نامية ومتجددة ، لا تهمل

الثوابت ، ولا تتعامى عن المتغيرات ، وتبنى حواراً إيجابياً خلّاقاً مع الآخر أيّا كان هذا الآخر ، طالما كان هذا الآخر يملك أسس الإبداع الإنسانى الثرىّ ، والرؤية الإنسانية المتسامحة .

إن الحفاظ على عقيدتنا وتراثنا المضئ ليس انغلاقاً أو جموداً أو تحجرّا أو ردّة ، كما يدعى أنصار التبعية الثقافية ، ولكنه هويّة لا يستطيع المثقف الشريف أن يخلعها ويمشى بدونها أو مرتدياً ثوباً مستعاراً .. ومن يفرط فى عقيدته وتراثه المضىء لا يملك إلا أن يكون تابعاً ذليلاً فى سوق النخاسة الدولية ، لأنه حينئذ يكون قد فقد العنصر الرئيسى الذى يمكنه من الحوار مع الآخر والتفاعل معه .

إن الثقافة هى الوجه الآخر للدين - كما قال زعماء الثقافة الغربية وأقطابها - ومع ذلك يجادلنا أنصار التبعية ، ويرون أن الثقافة شىء ، والدين شىء آخر ، ويتبرؤن من دين الأمة وعقيدتها .. وهو موقف لا نرى له نظيراً فى أية أمة من أمم الأرض .

أسأل الله أن تكون كلماتى خالصة لوجهه الكريم ، وأن تصيب الصواب .

وصلى الله وبارك وسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، وآله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .

حلمى محمد قاعود

١ - ثقافة العـــار

ثقافة العار مصطلحٌ لا مبالغة فيه ولا حدّة، لأنه خيرُ تعبير عن الثقافة المستبدّة السائدة، إذ تخلّت هذه الثقافة عن السبيل القويم الذى تنتهجه أمم الأرض للتعبير عن هويتها وشخصيتها، وآلامها وآمالها، وانعطفتْ نحو دروبٍ وعرةٍ، تكرّس التبعيّة والذيلية والخواء والهشاشة.

مثقفو العار يقودون ثقافة أمتنا إلى مصير مجهولٍ أسود، فى الوقت الذى يبلورُ فيه مثقفو العدوّ اليهودى فى أرضنا المحتلّة مثلاً؛ ثقافة كانت مطمورة قبل أربعة آلاف عام. فيبعثون لغةً باليةً قديمة، ويفرضونها على كلّ مهاجر يهوديّ إلى فلسطين، ويحدّدون له مدّة لاستيعابها حديثاً وقراءةً وكتابةً، ويكتب كتّابهم وأدباؤهم الموضوعات والدراسات والقصص والروايات والقصائد والمسرحيات بالعبرية، بل يترجمون أحدث العلوم التقنية (الطب، الهندسة، الكيمياء، الفيزياء ...) إلى العبرية، ويدرّسونها بالعبرية فى جامعاتهم ومدارسهم، وينطلقون فيما يقولون ويكتبون ويعلّمون من منطلقٍ توراتىّ تلموديّ يعبرّ عن شخصية يهوديّة كانت مجهولة فى أعماق التاريخ.

أما مثقفونا – أعنى من لهم الكلمة النافذة والصوت العالى فى زماننا – فقد بادروا إلى التنازل – مجّاناً وبلا مقابل – عن ثقافة الأمة وأساسها الراسخ (الإسلام) ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يشنّون الحملات فى وقاحةٍ غير مسبوقة ، ضد من يعارض توجّههم الإجرامى المفضوح ، واستفادوا من مواقعهم الإعلامية والثقافية لإلباس الحق بالباطل ، والتشهير بالإسلام : عقيدةً ومعطياتٍ وحضارةً ، شككوا فى صلاحيته لبناء ثقافةٍ معاصرةٍ تصوغ حُلْمَ الأمةِ ، وتنقله حقيقة ملموسة إلى أرض الواقع المعاش والمستقبل المأمول .

ثقافةُ العار ، إذاً لا تعبرّ عن أمتنا ولا عن شعوبنا ، ولا تنتمى للماضى ولا تنتسب للمستقبل ، ومن حقّ الناس أن نقدم لهم ملامح هذه الثقافة : منهجاً وخصائص ، حتى لا يقعوا فى الالتباس ، وحتى لا يضلّوا أو ينزلقوا إلى مهاوى التيه والضياع .

إن أصحاب الصوت العالى ، الذين هم مثقفو العار ، قادرون على التدليس ، وقادرون أيضاً على خداع شعوبنا العربية المسلمة ، وبخاصة الأجيال الجديدة التى يحاصرها القهر والفراغ والبطالة والخواء ، بحكم سيطرتهم على وسائل الاتصال والإعلام الفعالة ، ودعم السلطات الشمولية لهم .. وإذا أضفنا إلى ذلك أن أصحاب الثقافة الرفيعة والعميقة قد انسحبوا إلى الظل ، أو أرغموا على هذا

الانسحاب ، مما أدّى إلى امتلاء الساحة بالعملة الرديئة التى يملك أصحابها جرأة غريبة وبجاحة وقحة على الإعلان عن منهجهم المتهافت وبضاعتهم المزجاة ، فإن الواجب يفرضُ علينا أن نواجه ثقافة العار بالكشف والتعرية ، من أجل أبنائنا وأجيالنا الجديدة ، ومن أجل حماية ثقافتنا الأصيلة من التغييب والتزوير ، ومن أجل بناء مستقبل حقيقى يقوم على ثقافة إسلامية حيّة نامية ، تقود إلى التقدّم والتحضّر .

يعتمد منهج ثقافة العار على المبدأ الانتهازى الشهير : « الغاية تبرر الوسيلة » ، ولأن غاية ثقافة العار مختلفة تماماً عن غاية الأمة وثقافتها الأصيلة ، فكل الوسائل مشروعة لتحقيقها ، ويمكن أن نرصد معالم السلوك الانتهازى لمثقفى العار على مدى الفترة التى سادت فيها ثقافتهم وهى النصف قرن الأخير تقريباً ، لنجد تزييفاً وتزويراً ، ومخادعة ومخاتلة ، وتدليساً ومراءاة ، وكأن شعارهم يقول : « شىء من الحقيقة مع كلّ الباطل » لتبرير مقولاتهم وأفكارهم ، أو اختزال القضايا الكبرى فى جزئيات هامشية للتضليل والمراوغة .

هذا المنهج لا يتفق مع المواصفات العلمية ولا الأسس السليمة فى البحث والتفكير ، لأن نتائجه معروفة سلفاً ، أو معدّة من قبل ، وليست وليدة مقدّمات صحيحة ، وبراهين ساطعة ،

ومن ثمّ تبدو معالجته للقضايا التى يطرحها مثقفو العار أقرب إلى التهويش والهجاء، منها إلى الوعى العلمى والبحث المجرّد، وأخطر ما فى هذه المعالجة، هو **استخدام المصطلح** استخداماً مراوغاً، لا يعبرّ عن دلالته اللغوية والفكرية الدقيقة، والمصطلح فى المجال البحثى من أسس الدراسة الجادة والمثمرة، فإذا اسْتُخدِمَ استخداماً علمياً سليماً أدى إلى نتائج مقنعة، وإذا اسْتُخْدِمَ استخداماً مغلوطاً أو مراوغاً كانت النتائج مغلوطة أو مراوغة.

لا يبالى مثقفو العار بذلك، ويصرّون على المغالطة والمراوغة، مما يعنى فقدان الضمير العلمى الذى ينسف بنيانهم الفكرى من أساسه.. خذ مثلاً مصطلح «الدولة الدينية»، هذا المصطلح له دلالة معينة، حيث يشير ضمن ما يشير إلى مرحلة العصور الوسطى المظلمة التى كان للكهنة أو للكنيسة بصفة عامة، دور كبير فى حكم الشعوب الأوربيّة حكماً دينياً بشعاً يقوم على التأثيم والتجريم ومنح صكوك الغفران وفرض صكوك الحرمان من أناس يدّعون الوساطة بين العبد وخالقه، وترتب على ذلك تخلّفٌ وقهرٌ واستبدادٌ أفاضت كتب التاريخ فى الحديث عنها.. فيأتى مثقفو العار فى زماننا ليصفوا الدعوة إلى الحكومة الإسلامية أو تطبيق الشريعة «بالدولة الدينية»؟ مع أن الفارق كبير بين الدولة الدينية بدلالتها المشار إليها والدولة الإسلامية.. لأن الأخيرة

ليست نظاماً دينياً كهنوتياً يملك فيه بعض الناس مصائر البعض الآخر بالتأثيم أو الغفران أو الحرمان، ولكنه نظام إنسانى شامل، يقوم على تنظيم المجتمع وفق أسس وقواعد ربّانية، ويتحمّل فيه الفرد مسئوليته بنفسه ﴿ وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنقِهِ .. ﴾ (الإسراء: ١٣) ولا وساطة فيه بين الخالق والمخلوق، ثم إنه نظام يتناغم مع الفطرة الإنسانية فى نزوعها إلى الحق والعدل والخير والشورى والجمال والبحث والمعرفة والعلم والتفاعل مع الآخر.

أما استخدام مصطلح «الدولة الدينية» فى ثقافة العار فإنه مراوغة خطيرة، تهدف أساساً إلى الإيحاء بالقسوة والبشاعة والتحكّم فى مصائر الناس بوساطة بعضهم عند قيام الحكومة الإسلامية أو النظام الإسلامى، مما يعنى أن المسألة صارت محسومة قبل أن تبدأ، وأن مناقشة قضية الدولة الإسلامية أو قضية تطبيق الشريعة مرفوضة سلفاً!

وهكذا يؤدى استخدام المصطلح المراوغ إلى تحقيق الهدف الذى يتوخّاه مثقفو العار فى التشويش على القضايا الخطيرة التى تعنى الأمة وتمسُّ مصيرها ومستقبلها، فضلاً عن إظهار القوم وكأنّهم كسبوا الجولة فى خصومتهم مع دعاة الإسلام وتصوّراته، وذلك بالتدليس على العامة، والأجيال الجديدة وهى الأجيال التى فقدت - بحكم عوامل عديدة - التعرّفَ على

المفاهيم الإسلامية وخصائص الشريعة بصورةٍ صحيحةٍ ومُرْضية .

ويمكن أن نرى المراوغة والمغالطة فى مصطلحاتٍ أخرى عديدة ، مثل الدولة المدنية ، والعقل والنقل ، والحداثة والتخلف ، والتنوير والظلامية ، والنهضة والإظلام ... إلخ .

بيد أن القوم ، وهم يستخدمون المصطلح المراوغ فى معالجاتهم ، **يتكئون على عنصر آخر له** أبعاد خطيرة فى مجال التشويش والمغالبة الجدليّة ، ويمكن **أن نقولَ أن التلفيقَ هو هذا** العنصر بكل ما يعنيه من كذبٍ وافتئاتٍ على الحقيقة أو إخفاءِ جوانب مهمّةٍ منها ، ولعل معالجتهم لاستجواب وزير الثقافة الذى تقدم من « جلال غريب » عضو مجلس الشعب فى ١٢/٢٥/ ١٩٩٣م يؤكّدُ ما نذهب إليه ، فقد اختزلوا الاستجواب فى « صورةٍ عارية » نشرتها إحدى مجلّات وزارة الثقافة ، وناحوا على محاربة الإبداع والفكر والحرية والتعبير . أما ما قدمه عضْوُ مجلس الشعب من أخطاء وخطايا وزير الثقافة الرافض لمنهج الله ، فلم يشيروا إليها من قريبٍ أو بعيدٍ .. لم يتحدثوا أو لم يشيروا مثلاً إلى ما قاله العضوُ عن تبديد أموالِ الدولة فى مشروعاتٍ استعراضيةٍ مظهريةٍ معاديةٍ لثقافة الأمة وروحها ووجدانها ، ولم يتحدثوا أو لم يشيروا إلى ممارسات الوزير الخاطئة فى مجال الآثار والمسرح والسينما ، ولم يتحدثوا أو لم يشيروا إلى استغلال الوزير لمنصبه في

تسويق بضاعته المزجاة من لوحاتٍ تحت مستوى الفن الجميل والتعبير الجيد ، بأسعار خيالية لبعض الجهات فى دول الخليج وغيرها ، ولم يشيروا إلى شيء من هذا أو غيره مما حفل به استجواب العضو للوزير واستمرّ بيانه ومناقشته قرابة الأربع ساعات على منصة مجلس الشعب ، ولخصته الصحف القومية والحكومية فى مساحات كبيرة من صفحاتها فى حينه .

لقد توقف المنهج التلفيقى لمثقفى العار عند الدفاع عن خطايا الوزير ومشروعاته الثقافية الاستعراضية الهشة ، ورفعوا راية « حرية التعبير والإبداع » ، فى مواجهة الحقائق الدامغة التى تدين الوزير وميلشياته بسبب تبديد أموال الأمة وتشويه ثقافتها وتخريب وجدانها ، ووقفوا عند « الصورة العارية » التى نشرها واحدٌ من أفراد الميلشيات فى المجلة التى يسيطر عليها وينشر فيها سمومه الفكرية وترّهاته الثقافية ، وعدّوا رفض النائب فى مجلس الشعب لنشر هذه الصورة إرهاباً وخنقاً لحرية الفكر والإبداع والثقافة !! والحقيقة أن النائب لو لم يتضمن استجوابه إلا إدانة نشر الصورة المذكورة ، لكان ذلك سبباً كافياً لإقالة الوزير ومحاسبته ، فى بلد له قيمٌ وأخلاقٌ وعقيدةٌ ترفض الابتذال والإسفاف والهبوط .

والفن الرفيع كما يعلم كلُّ مثقفٍ حقيقىّ ، هو الذى يرتقى بالإنسان ويسمو بمشاعره ويعلو بأحاسيسه ، أما الفن السافل ، فهو

الذى ينزل بالإنسان إلى حضيض الحيوانية والشهوة الرخيصة والمتعة الزائفة ، ولو نظر مثقفو العار إلى ما يفعله سادتهم فى الغرب والشرق ، لعرفوا أنهم يكرّسون الفنون الرفيعة فى أدبيّاتهم وكتاباتهم من أجل شعوبهم ، ويشجبون الفنون الرخيصة ويندّدون بها ، وإن كانت « ميكافيلليتهم » لا تمانع من تصدير الأخيرة إلى أمثالنا من الشعوب المستباحة والمستهدفة والمطلوب إبادتها معنوياً أو مادياً .

إن الصراخ من أجل حرية الإبداع المزعومة حين يتوقف عند صورةٍ عاريةٍ نشرها محرّر ينتمى لثقافة أخرى غير ثقافة الأمة ، مع قلب القضيّة من انحرافِ وزير إلى إدانة المطالبين بمعاقبته ، تلفيقٌ رخيصٌ لا يمارسه مثقفٌ حقيقى يملك رؤيةً واضحةً حتى لو اختلف الناس معه .. إن التلفيق سمةٌ أساسية من سمات مثقفى العار الانتهازيّين الذين يرون مصالحهم وحدها فى إطارٍ شاذٍّ وغريبٍ ، تصنعه ظروفٌ سياسيةٌ واجتماعيةٌ معاديةٌ لدين الأمة وتراثها المضىء وثقافتها الرفيعة ومثلها العالية .

ويقرؤنا التلفيق فى منهج مثقفى العار إلى **عنصر ثالث من عناصره** يتمثلُ فى التحوّل من النقيض إلى النقيض ، ومثلما سوّغوا النقيض الأول ، ووقفوا إلى جانبه وأيّدوه ، فإنهم لا يخجلون من فعل الشىء نفسه مع النقيض الآخر ، وتلك آية الانتهازية الرخيصة التى لا تحتاج إلى تدليل أو برهنة . لأن التحوّل غير المقنع ، أو الذى

لا نطّلع على أسبابه هو انتهازية رخيصة بكل المقاييس ، تستحق اللعنة والزراية من كل المنصفين .

تأمل مثلاً موقفهم من قضية الحرية ورديفتها الديمقراطية .. إنهم يصمّون الآذانَ بالحديث عن الحرية والديمقراطية ليل نهار ، ولكن عندما تتحققُ الحرية والديمقراطية على أرض الواقع ، فإنهم يتنكرون لما قالوا ، ويرفضون النتائج التى تصنعها الحرية الحقيقية ، والديمقراطية الحقيقية إذا جاءت على عكس إرادتهم .. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك موقفهم من أحداث الجزائر والسودان .

فقد جرت انتخابات ديمقراطية حرة فى الجزائر (ديسمبر ١٩٩٢) أظهرت فوز جبهة الإنقاذ الإسلامية بالأغلبية الساحقة فى مجلس النواب ، فإذا بمثقفى العار يؤيدون الحكم العسكرى هناك الذى انقلب على الديمقراطية والحرية جميعاً ، ووضع الفائزين وأتباعهم فى السجون داخل الصحراء الملتهبة ، وقام بتعذيبهم فى وحشية ، وفرض الأحكام العرفيّة ، وعطّل الصحف الحرّة ، وحارب المظاهر الإسلامية ، ومنع الأذان فى أجهزة الإعلام . وأعلن ولاءه المطلق لسادته فى فرنسا وأمريكا .. وتأييدُ حكمٍ مثل هذا ، والتماس العذر له فى إجرامه وتنكيله بالأحرار ، يؤكدُ أن القوم لهم غاية أخرى بعيدة ، بل أبعد ما تكون عن الحرية والديمقراطية .

والأمر ذاته يتكرّر فى السودان التى اختارت حكومتها أن تنهج منهجاً إسلامياً فى الحكم والتشريع، وأيّاً كانت الملاحظات على هذه الحكومة، فإن ذلك لا يسوغ لمثقفى العار أن يجعلوا من الانفصالى الخائن «جون قرنق» بطلاً وطنياً يستحق التأييد والمساندة .. فى حين يعلم كل من لديه أدنى حسٍّ وطنى - وليس دينيًا إسلاميًا - أن الانفصالى الخائن «جون قرنق» يسعى إلى تقسيم السودان، وفصل جنوبه عن شماله، وإقامة دولة نصرانية فى الجنوب، وتحريم الشريعة الإسلامية فى الشمال، والمساعدة على فصل غرب السودان وإعلان دولة نوبية معادية فيه، وهو ما يعنى فى النهاية أن موقف القوم من القضايا الثقافية والإنسانية بعامة، يقوم على أساس انتهازى رخيص، لا يعبأ بالقيم أو الأخلاق أو المصلحة الوطنية، فضلاً عن الوازع الدينى والضمير الإنسانى .

تلك أبرز مقدمات المنهج لدى مثقفى العار فى بلادنا، وهى مقومات لا تنفصل عن خصائص ثقافة العار، وملامحها العامة .

* * *

٢ - ثقافة العار

لا ينفصل المنهج عن الخصائص فى ثقافة العار، فالخصائص تمتزج بالمنهج امتزاجاً شاملاً يكاد يهدم الحدود والفواصل، وإذا تأملنا معانى المراوغة والتلفيق والانتهازية، ووضعنا أبعادها المترامية فى أذهاننا فسوف نجدها من وراء كل خصيصة من خصائص ثقافة العار إنتاجاً وإبداعاً، وهو ما يعنى أن القوم جادون فى خططهم لإفساد حياتنا الثقافية والفكرية إفساداً تاماً، وإبْعادِ الأجيالِ الجديدة عن الثقافة الإسلاميّة الحقيقة إبْعاداً كاملاً، حتى يحدث الفراغُ الثقافىّ والفكرىّ، الذى يؤدّى بالتالى إلى التبعية والذيْليّة واللّهاث وراء الآخر، عدوًّا أو غير عدوّ.. والتخلّى عن الهويّة مجاناً وبلا مقابل، اللهم إلا إذا عَدَدْنا «السُّخْرة» الفكرية، و«العبودية» الثقافية مقابلاً يمنحنا إياه عالمُ الاستلاب والاغتصاب.

وأودّ قبل أن أدخل فى تعداد الخصائص الأساسية لثقافة العار، أن أشير إلى الفارق الدقيق بين التفاعل مع الآخر، والاستسلام له. التفاعل عملية انتقاء حرّ بمحض الإرادة تتيح لصاحبها أن يأخذ ما يراه إيجابياً، ويعطى ما لديه أيضاً إذا أمكن، أما الاستسلام فهو الاستلاب وهو الضياع، وهو الموت حضاريّاً

وثقافيّاً وفكريّاً .. وقبل ذلك فقدان للهويّة .. ولعلنا نشير في هذا السياق إلى الفارق بين تجربتين، تمثّلُ كل منهما إحدى الحالتين. فاليابان واليهود في فلسطين تفاعلوا مع الآخر تفاعلاً إيجابيّاً احتفظ بالخصائص الذاتية والهويّة القومية. أما تركيا وألبانيا فقد استسلمتا للآخر بعد أن تخلتا عن الإسلام أو الهويّة، الأولى للغرب الرأسمالي والثانية للغرب الشيوعي، وكانت النتيجة تخلفاً وضياعاً وديوناً وعذاباً اجتماعياً وحضارياً لا عاصم منه إلا الله .. ومن ثمّ، فلا يتصورنّ أحد أننا حين نعارض التبعيّة والذّيلية أو ثقافة العار، ندعو إلى الانغلاق أو الجمود أو التحجر أو معاداة الآخرين، كلّا، إننا نريد الدفاع عن هويّتنا، وتنميتها بما يجعلها أقدر على العطاء والإبداع، وصيانة نفسها وكيانها وهو ما يختلف تماماً عما تدعو إليه ثقافة العار والتردّي .

والآن ما خصائص ثقافة العار ؟

يمكننا أن نجملها فيما يأتي :

أولاً : القمع والاستبداد :

ثقافة العار لا تعرف الحوار مع الآخر «المسلم»، بل لا تعترف به، ولا تتجاوب مع تصوّراته ومقولاته، إنها تراه فحسب موضعاً للهجوم والهجاء، وتصبّ عليه سيلاً من النعوت

البذيئة ، فالإسلام هو الإظلام ، والمسلمون هم الظلاميون ، والإسلام في مفهوم ثقافة العار : ردّة (؟) ورجعية وظلامية وتخلف وسلفية وأصولية (والوصفان الأخيران يترددان بالمفهوم الغربى الذى يختلف عن المفهوم الإسلامى) ، فضلاً عن الأوصاف السياسية الشائعة فى هذه الأيام مثل التطرف والإرهاب والدمويّة ... إلخ .

ولذا ، فإن ثقافة العار ترى أن واجبها يحتم عليها أن تقمع كل صوت إسلامى وأن تحاصره وتلاحقه وتطارده وتحرّض عليه ، وهو ما يتبدّى فى الواقع الثقافى الراهن حيث يسيطر مثقفو العار على المنابر المقروءة والمسموعة والمرئية بنسبة تتجاوز ٩٥٪ مما هو متاح فى الساحة ، ولذا يقولون ما يريدون دون أن يستطيع أحد الردّ عليهم أو مناقشة آرائهم المستبدة ، ويكفى فى هذا السياق أن نشير إلى موقفهم من استجواب وزير الثقافة فى مجلس الشعب الذى أشرنا إليه من قبل ، فقد انطلقوا فى هجوم صاعق على النائب الذى قدم الاستجواب ، وعلى أفكاره ، وعلى الإسلام ، وعدّوا الرجل ظهيراً للإرهاب والعنف فى الواقع الاجتماعى ، بل تجاوزوا ذلك إلى إدانة مجلس الشعب الذى سمح بتقديم الاستجواب ، وهاجموا الرقابة الإدارية لأنها تجرأت وقامت بواجبها فى التفتيش على هيئة الكتاب التابعة لوزارة الثقافة ، وفى عدد واحد من مجلة « المصوّر » على سبيل المثال ظهرت ثلاثة

موضوعات فى ١٩٩٤/١/٢٨ تحتل ثمانى صفحات من القطع الكبير جداً، عناوينها كالآتى :

« الرقابة الإدارية تحارب الأدباء بسيف الأزهر » و« مقدمة للحوار الوطنى : لكى يكون مجلساً للشعب » و« ثرثرة فوق الورق : ليست الخصومة مع الدين » ، عدا موضوع عن الرقابة الفنية بعنوان « تطوير رءوس الرقباء هو الحل » يصبّ فى سياق التحلّل من الالتزام الأدبى أمام المجتمع، وموضوعين يدافعان عن وزير الثقافة فى مجال الآثار الأول بعنوان : « بعد حكم القضاء الإدارى : هل نعيد ملكات مصر من طوكيو ؟! » والثانى بعنوان « وزير الثافة : سنضع كل الأدلة والوثائق تحت نظر المحكمة لتستنير بها ، الطاعنون قدموا معلومات غير دقيقة ! »، وبذا يكون مجموع الصفحات الكبيرة التى خصصت لقهر الرأى الآخر فى عدد واحد من مجلة واحدة ثلاثة عشر صفحة من الحجم الكبير جداً، دون أن يجد الرأى الآخر مساحة مماثلة أو متواضعة يردّ فيها على القمع والاستبداد الذى تمارسه ثقافة العار والتردّى !

إن القمع والاستبداد لا يتوقفان عند حدود قهر الرأى الآخر (الإسلامى)، بل يمتدّ ليشمل كل المتعاطفين معه، أو الذين يقفون موقفاً محايداً، وهذه لعمرى محنة لم تشهدها أمتنا فى أى عصر من عصورها .. تلك العصور التى زخرت بالحوار والجدل

والحجة والبرهان ، وأثمرت تراثاً زاخراً قلّ أن يكون له نظير لدى غيرها من الأمم. أو تلك الصور التى شهدت جموداً وتراجعاً وانحداراً وتفشى فيها الجهل والخرافة والتقليد هل نقول إن قهر الآخر ونفيه علامة من علامات الساعة ؟

ثانيا: إعلان اللادينية أو العلمانية :

بالرغم من أن مثقفى العار ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة ، فقد التقوا مؤخراً على الدعوة إلى اللادينية أو العلمانية كما تسمى ، وجاء اليسارى ليعانق الناصرى ويتحالف الاثنان مع الطائفى المتعصّب ، ويقف الجميع فى خندق واحد مع المعادين للدّين (الإسلام خاصة) ، ورفضه منهجاً وتطبيقاً ، وفى هذا المجال ، كثر حديثهم عن العلمانية والدعوة إلى « علمنة » المجتمع تحت ذرائع مختلفة أهمها أن الشعب يضم أقلية غير مسلمة ترفض الحكم الإسلامى ، وأن تطبيق الشريعة سيعرض الوحدة الوطنية للخطر ، وسيدفع الوطن إلى التمزق ، وسيحرّض الدول الكبرى (الصليبية) على التدخل وتهديد الاستقلال الوطنى !!

ومع تهافت هذه الذرائع ، إلا أن القوم استمروا فى ترديدها حتى الآن ، وعبّروا عنها قولاً وعملاً ، واستثمروا سيطرتهم على المنابر الثقافية والإعلامية إلى جانب المناخ السياسى الراهن وما

يسوده من عنفٍ دامٍ للدعوة إلى اقتلاع الإسلام من جذوره بحجة « المواجهة مع الإرهاب » ! وفى هذا السبيل جنّدوا كل الإمكانات المتاحة للتنفير من الإسلام ، وتصويره بالدين المنافى للعقل والحرية والإبداع والاجتهاد ، ففى وزارة الثقافة مثلاً قامت هيئة الكتاب بنشر الكتب والدواوين والقصص التى تزرى بالإسلام وتعبث بالعقيدة وتفسر القرآن تفسيراً مادياً شائهاً ، ثم أصدرت ما يسمّى بسلسلة المواجهة التى تضمّ خيْراً قليلاً ، وشرًّا كثيراً يتمثّل فى مجموعة من الكتب التى تنتقص العقيدة والشريعة وتشكك فى صلاحية الإسلام للحكم والحياة ، وطرحتها فى الأسواق بسعر رمزى لا يساوى ثمن الغلاف !! وكأنّ اقتلاع الإسلام هو الكفيل بالقضاء على الإرهاب !

وفى أجهزة الإعلام ، اشتدت الحملات على المتدينين حيث تصمهم بالتطرف والإرهاب ، ووصل الأمر إلى حدّ تأليف المسلسلات التى تهجو التديّن وتشكك فى العقيدة (راجع مثلاً بيان شيخ الأزهر فى الوفد والجمهورية ١٠/٣/١٩٩٤، وفتوى المفتى فى بريد الأهرام ٩/٣/١٩٩٤ ردًّا على عدم اعتراف مؤلف مسلسل « العائلة » بعذاب القبر ونعيمه) .

وفي وزارة التعليم ، فإن محاربة المتديّنين ، وتخفيف الجرعة الدينية (على خفتها فى حقيقة الأمر) ، وقد وصلت إلى مستوى

غير مسبوق ، من التدنيّ والتشهير ، فقد تعهّد الوزير المختص (وهو من عُمُد التنظيم الطليعى الذى أسسه جمال عبد الناصر) بقطع دابر المتدينين الذين يسميهم المتطرفين من وزارته ، وقد نقل الكثيرين منهم من مجال التدريس إلى مجال العمل الكتابى بعيداً عن المدارس ، كما تولى تغيير المناهج الخاصة بالتربية الدينيّة الإسلامية وتهمشيها وتحويلها إلى إنشائيات لا تغيّر سلوكاً ولا تبنى فرداً .

وترتّب على تمكُّن مثقّفى العار من مخاطبة الرأى العام ، والسيطرة على وسائل التوجيه والتعليم ؛ أن أَلْقَواْ فى رَوْعِ السُّلطة أن الإسلام هو الخطر الحقيقى الذى يهدّد وجود النظام ، وأن التهاون مع حملة رايته (معتدليهم ومتطرفيهم) سيعرّض البلاد لكارثة عظمى ، وقد نجحوا فى تحقيق غايتهم إلى حدّ كبير .

وأصبح خطاب القوم فى المنتديات وعلى صفحات الصحف والدوريات ومهرجانات الأدب والفكر يقوم على مهاجمة الإسلام تحت مسمّى مواجهة التطرّف والإرهاب والإظلام ! فضلاً عن الدعوة إلى اللادينية أو العلمانية التى تعنى أولاً وأخيراً اقتلاع الإسلام !

* * *

ثالثا: تأييد السلطة والأحكام العرفية :

يفترض فى المثقف الحقيقى أن ينحاز إلى القيم الإنسانية المشتركة ، مثل العدل والحق والشورى أو الديمقراطية وحق الإنسان فى الأمن والحفاظ على نفسه وعرضه وشرفه وكرامته وماله .. وهناك من المثقفين من يدفعون حياتهم ثمناً للدفاع عن هذه القيم ، وأولى بالمثقف المسلم أن ينحاز إليها ، ويضيف إليها ما تميّز به الإسلام من قيم كانت مثلاً فى تجرّدها وسموّها وإعلائها لقيمة الإنسان -أيّا كان انتماؤه- انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ...﴾ (الإسراء : ٧٠) .

ولا بأس أن يكون المثقف موالياً للسلطة شرط أن تحترم هذه السلطة الإنسان ، وتقوم بواجباتها المنوطة بها تجاهه ، بل لا بأس أن يشارك المثقف - كما يحدث فى بعض البلاد الديمقراطية - مع آخرين فى تحمل مسئوليات الحكم وأعباء السلطة . وهناك من المثقفين من قام أو يقوم بدورٍ استخبارى ، يجمع فيه المعلومات والبيانات التى تساعد السلطة على رسم خططها وسياساتها فى إطار المشاركة الجمعيّة من أفراد الشعب لحكومتهم فى صنع المستقبل ، وكان المستشرقون عموماً من أبرز العاملين فى هذا السياق ، بل كانوا فى المراحل الأولى طلائع للحملات الاستعمارية ، وكان الكاتب القصصى الشهير « سومرست

موم » واحداً من المرموقين الذين خدموا الحكومة البريطانية فى هذا المجال ، وبخاصة فى الهند !

بيد أن الأمر يختلف بالنسبة لنا ، فالمسئولية عندنا فردية منوطة بشخص الحاكم غالباً ، وبطانتهُ (التي لا تتغيّر إلاّ بقدر ، مع ترسانة من القوانين المقيدّة للحريات والمُهْدِرة لكرامة الإنسان وحقوقه ، مما يستدعى أن يقف المثقف إلى جانب بنى وطنه أولاً ، ويدافع عن حقوقهم وكرامتهم وحريتهم ، ويرفض السلوكيات والممارسات الشائنة التى تتنافى مع أبسط القواعد الإنسانية والأعراف البشرية .

لقد تحدثت المحاكم المصرية فى أحكام عديدة عن جرائم تقشعر لها الأبدان مارستها السلطة ضد خصومها أو من تتوهم أنهم خصومها السياسيّين ، وأدانت هذه الجرائم التى شملت التعذيب والاعتقال والاغتيال والقهر والمطاردة والملاحقة والفصل من الوظائف وبخاصة فى عهد الناصرية الأول ، وما زالت المحاكم حتى اليوم تحكم بالتعويضات لضحايا التعذيب والقهر فى هذا العهد ، وكان أحدث ما نشر فى هذا المجال حكم محكمة النقض بجنوب القاهرة الذى يلزم وزارة الداخلية المصرية بدفع عشرة آلاف جنية تعويضاً لورثة معتقل سياسى تعرض للتعذيب بناء على دعوى ورثة المرحوم « محمد عباس فهمى » الذى اعتقل فى الفترة

ما بين ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٨ و٤ أبريل عام ١٩٦٤، وأكدت المحكمة على وجوب التعويض عن الأضرار الأدبية التى تشمل كل ما يؤذى الإنسان فى شرفه أو يصيب عاطفته وإحساسه ومشاعره (الأهرام، ١٩٩٤/٣/١٠ ، ص ٢٠) .

فأين مثقفو العار من واقع السلطة ؟

إنهم للأسف يقفون فى خندق واحد مع ممارستها القمعية ، ويبّررون سلوكياتها المجافية لروح القانون والدستور، والمعادية للحرية والديمقراطية ، والرافضة للمشاركة الشعبية فى اتخاذ القرار .. وإن كانوا من حين لآخر يردّدون ترديداً ببغاوياً ألفاظ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولكن بالنسبة لشعوب أخرى غير الشعب المصرى .

لقد طالبوا بالمزيد من القوانين المقيدة للحريات والمهدرة للكرامة الإنسانية بحجة مقاومة الإرهاب ، وسوّغوا تمديد العمل بقانون الطوارئ (قانون الأحكام العرفية) الذى امتدّ لما يقرب من ثلاثة عشر عاماً حتى الآن ، ولا أحد يعلم إلا الله متى ينتهى ، وإذا قيل لهم إن ذلك مناف للأخلاق وحقوق الإنسان والديمقراطية ، قالوا لماذا تخافون من الطوارئ وأنتم أبرياء ؟ وصحف السلطة والأحزاب المؤيدة لها وبخاصة (اليسارية والناصرية) تحفل بالعديد

من المقالات التى تؤيد الأحكام العرفية مباشرة أو ضمناً تحت دعوى مكافحة الإرهاب والتطرف .

أضف إلى ذلك تأييدهم السلطة فى المواقف الاستبدادية - أيا كانت - ما دامت هذه المواقف موجّهة إلى الإسلام أو رموزه أو أتباعه ، وهذا لعمرى عارٌ لا يليق بثقافة حقيقية ، ولا مثقفين حقيقيين !

رابعاً : تشويه علماء الإسلام والدفاع عن أعدائه :

يظل علماء الدين فى أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية محل احترام وتقدير من أتباعها وأنصارها ، يحدث ذلك لدى جميع الناس باستثناء المسلمين ، فقد اعتاد نفر من مثقفى هذا الزمان على الاستخفاف بعلماء الإسلام وتشويه صورتهم والتطاول عليهم والاستهانة بكرامتهم دونما سبب معقول ، أو مبرر موضوعى ، اللهم إلا إثبات فكرة إجرامية تسيطر على خيال مثقفى العار ، وهى احتقار الإسلام أو الدين الذى ينتمى إليه علماء الإسلام ! وتسأل لماذا ؟ فلا تأتيك إجابة واضحة غير رفضهم للدين الإسلامى وكل من ينتمى إليه .

فى العالم الصليبى يظل البابا والكرادلة والأساقفة موضع تبجيل وتكريم ، بل إن البابا فى روما - باب الفاتيكان - يمثل ركنًا

أساسياً وضرورياً فى صُنع السياسة الأوربية والأمريكية على مستوى العالم كله ، وقد كشفت أحداث أوربة الشرقية التى انتهت بسقوط العالم الشيوعى أن بابا الفاتيكان كان على صلة وثيقة بالرئيس الأمريكى الأسبق « رونالد ريجان » ومن خلفه قبل سقوط الأنظمة الشيوعية وبعدها . فإلى هذا الحد وصلت أهمية عالم الدين الصليبى أو رجل الدين كما يُسمّى .. والأمر كذلك بالنسبة لليهود والهندوس والبوذيين وغيرهم . أما عندنا نحن المسلمين ، فإن مثقفى العار لم يتركوا كبيراً ولا صغيراً من علماء الدين الإسلامى الذين رفضوا المنهج الإجرامى في ثقافة العار ، إلا وأشبعوه سخريةً واستهزاءً ، وتشويهاً وتشهيراً بالقول والفعل ، فى كتابات مقروءة وتمثيليات مسموعة ومسلسلات ومسرحيات مرئية ومنظورة .

ولعلنا نذكر تلك الحملات التى شنّها مثقفو العار ضد الإمام الراحل « عبد الحليم محمود » فى السبعينيات ، وتلك الحملات التى شَنّوها ضدّ الإمام جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر الراحل – رحمه الله – ، والشيخ « محمد متولى الشعراوى » والشيخ « محمد الغزالى » – رحمه الله – وغيرهم من دعاة الإسلام وعلمائه وكتّابه الذين يتصدّون لأحاديث الإفك والمرجفين فى المدينة ، وقد حفلت مجلة « روز اليوسف » التى يحرّرها شيوعيون وناصريون وطائفيون متعصبون وأهل هوى

بالنصيب الأوفى من الإفك والزور والبهتان على مدى العامين الأخيرين خاصة .

وفى المقابل ، فإننا نجد لدى مثقفى العار حفاوة كبيرة بأعداء الإسلام والكارهين له والمنافقين الذين يظهرون ما لا يبطنون ، ويدّعون أنهم يجدّدون الإسلام ، فى الوقت الذى ينسفون فيه الثوابت ويهزّون الرواسخ ، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

إن مثقفى العار حين يدافعون عن المارق « سلمان رشدى » مثلًا ، ويرون فيما يقوله إبداعاً وفناً ، ويطلبون من الناس باسم حرية التعبير والإبداع والاستنارة أن يتقبلوا إسفافه ، وهبوطه وجرأته على النبى ﷺ وزوجاته الطاهرات ؛ فإنهم يقفون معه على طول الخط ، ويمثّلون وجهه الآخر القبيح ، بل الأشدّ قبحاً ودمامة ، ويصدمون الأمة فى مشاعرها ووجدانها ، ويلحقون بها عاراً غير مسبوق .. وبخاصة بعد أن ظهر الدور المشبوه الذى يلعبه هذا المارق ، واستقبال الرئيس الأمريكى « بيل كلينتون » له ، واهتمام الدول الأوربية ، وإعلامها به ، بدعوى التضامن مع حرية الفكر والتعبير فى حين أن هؤلاء جميعاً يعلمون أن شعوباً بأكملها ترزح تحت نير الاستعباد والظلم، وأن كثيراً من المجاهدين والكتّاب المسلمين المظلومين يعانون أشدّ ألوان القهر والعسف والقمع . ومع ذلك فلم تبد أمريكا ولا أوربة ولا الإعلام فيها أىّ

تعاطف حقيقى معهم .. ويكفى أن نشير إلى فلسطين وما يجرى فيها ولأهلها ولأكثر من عشرة آلاف معتقل يعانون أبشع ألوان المهانة على يد النازيّين اليهود وما مذبحة الخليل أو الحرم الإبراهيمى (٢٨/٢/١٩٩٤) ببعيدة عن الأسماع أو العيون !!

إنّ مثقفى العار حين يحتفون بسلمان رشدى وأمثاله من عيّنة الكذّاب السودانى الذى أنكر الحدود والسنّة أو الأفاقين الآخرين الذين يزعمون مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان حول القرآن الكريم والسنة الشريفة وصلاحية الشريعة ودور الخلافة وتاريخ الخلفاء .. إنما يؤكدون على دورهم الخيانى للأمة والدين جميعاً ، لأنهم يحققون - ببساطة - ما يريده الغرب الصليبى والعدوّ اليهودى !

خامساً : الإعلاء من شأن النماذج الشائهة فى التاريخ الإسلامى أو تفسيره تفسيراً منحرفاً :

لعل هذه الخصيصة ترتبط بالخصيصة السابقة برباط قوى ، فإذا كان مثقفو العار يعلون من شأن النماذج المنحرفة المعاصرة ، فإنهم يفعلون الشىء نفسه مع النماذج المشابهة فى التاريخ القديم ويضيفون إلى ذلك تفسيرهم المنحرف والضال للتاريخ بعامة : شخوصاً وحوادث .

كان من الطبيعى بالنسبة لهم أن يقلّبوا فى نفايات التاريخ الإسلامى ويستخرجوا منها العناصر التى تؤيد توجّهاتهم الشريرة والمتطرّفة، وأن يفسّروا ما يعثرون عليه أو يصادفونه تفسيراً معوّجاً يتفق مع تصوّراتهم وآرائهم الشاذّة.

لقد بعثوا مثلًا تاريخ القرامطة. بوصفه حركةً ثوريةً قادها الفقراء ضد الأغنياء، وأضفوا عليها من هالات الاهتمام والحفاوة ما جعلها نموذجاً ينبغى تقليده، وإشاعته، واستلهموها فى نثرهم وشعرهم، مما يعنى أن حركة القرامطة صارت بريئة من الجرائم والانحرافات التى ارتكبتها فى حق الإسلام وحق المسلمين، وحق التاريخ أيضاً.

لقد قامت حركة القرامطة فى سواد العراق ضد الدولة العباسية تحت دعوى إنصاف الفقراء والمظلومين، ونجحت فى تكوين كيانٍ وجيش.. وحاربت السلطة، وكسبت أنصاراً، وشرّعت شريعة خاصّة بها فى العبادات والمعاملات تقوم على إطراح التشريع الإسلامى جانباً، واستبدلت ظلماً بظلم، وطغياناً بطغيان، وقهراً بقهر، وكان لا بد أن تتهاوى تحت ضربات الدولة المركزية، وبسبب فشل مشروعها الذى قنّن الظلم والطغيان والقهر، وجعل السلطة للأقوى يداً والأشدّ قمعاً!

وفى مجال الأدب بعثوا النماذج الشعوبية والفاجرة والملحدة ، ورأوا من خلالها التنوير والتقدم والنهضة ، فركّزوا على بعث بشار بن برد ومهيار الديلمى وأبى نواس والحلاج وابن الراوندى وإخوان الصفا والأسود العنسى وميمون القداح وابن نوح .. وعدّوهم النماذج الثائرة التى يجب أن تحتذيها الأجيال فى تحقيق التنوير والثورة واللحاق بأوربة ، أى ينبغى أن يصادموا المجتمع فى أخلاقه وعقائده ويبيعوا ترابه الوطنى !

لم يتوقف مثقفو العار عند هذه النماذج الشائهة وحدها ، ولكنهم أعلنوا أن تاريخ الإسلام لم يقدم غير المعتزلة نموذجاً أعلى للعقل والتنوير ، وليتهم وقفوا من المعتزلة موقفاً علمياً موضوعياً ، ولكنهم أخذوا الجانب السلبى أو المتطرف لديهم ، وتجاهلوا الجوانب الإيجابية وأبرزها إثبات وجود الله بالعقل ، فالقوم يرفضون أساساً الغيبيات وأهمها وجود الله .. ولكن منهج التلفيق الذى يحكمهم ، يجعلهم يدلّسون فيما يقولون ، ويزعمون مزاعم لا تتسق مع العلم والبحث .

إن موقفهم من المعتزلة يعدّ أوضح الأمثلة على تهافت أفكارهم وضحالة ثقافتهم ، وينبئ عن خبئ يختفى وراء مزاعمهم ، ألا وهو إثبات أن المدرسة العقلية فى الإسلام لا تنتمى

إليه بل تنتمى إلى اليونان وفلسفتهم، بينما الإسلام أول دين جعل العقل مدخلاً للإيمان بالغيب والنقل، وأول دين أعلى من شأن العقل وسيلة للمعرفة والمسئولية ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ...﴾ (العلق: ١) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ...﴾ (الأحزاب: ٧٢)، وما أكثر الآيات الكريمة التى تحدثت عن الذين يعقلون والذين لا يعقلون، ما يدخل تحت العقل ونقيضه.. وبعد ذلك كله يأتى مثقفو العار ليصفوا الإسلام بالإظلام، ولا يتوقفون فى تاريخه إلا عند المعتزلة أو جانب واحد من تراثهم.

ويمكن أن نقيس على هذا الموقف مواقف أخرى كثيرة تقوم على التلفيق، أو التفسير المنحرف، والغاية من وراء دعم آرائهم الضالة وثقافتهم المغشوشة.

سادساً: الإلحاح على ما يسمى بقضية المرأة:

تلحّ ثقافة العار على وتر حساس لدى جانب لا بأس به من الناس فى مجتمعنا، ألا وهو المرأة، حيث تتخذ من المرأة تكأة لبث أفكار معادية للإسلام والمسلمين، وهى ذاتها أفكار الغرب أو بالأحرى أفكار المستشرقين حول الإسلام عامة والمرأة خاصة.. فالمرأة عند مثقفى العار مضطهدة ومظلومة وينبغى أن تتحرر من

الحجاب وترفض تعدّد الزوجات ، كذلك فلا بد أن يكون زواجها أبدياً لا مجال فيه للطلاق ، وأن يكون لها ما للرجال من الحرية فى مزاولة كافة الأعمال - حتى لو تصادم مع فطرتها واستعدادها - وأن تسلك سلوكهم وتشاركهم فى العلاقات والسفر والسهر والشرب والرقص .. بوصف ذلك كله ، الإطار الحقيقى للحرية !

وقد جنّ جنون مثقفى العار ، يوم انتشر الحجاب بعد سفور ، وعادة المرأة - مثل الرجل - إلى ربها وخالقها ، وارتادت المساجد ، وتوجّهت إلى بيتها تعطيه اهتمام بعد طول إهمال فى العهد الثورى الاشتراكى التقدمى .. وفى ذات الوقت كانت المرأة المحجبة تتفوّق فى مجال التعليم ، وتحرز مكانة عالية فى مختلف التخصصات والمجالات الملائمة لفطرتها وقدراتها ، وكان معظم الأوائل فى شهادة الثانوية العامة على مدى سنوات عدة من الفتيات المحجبات الملتزمات بالدين .

هذا التطوّر الكبير فى واقع المرأة المسلمة لا ترضاه ثقافة العار ، لأنها تريد المرأة دمية تشبه المرأة الغربية باسم الحرية والتقدم ، ويتناسى مثقفو العار أن الأخيرة تعبت من الرقّ الاجتماعى الذى أزرى بها ، وحوّلها إلى آلة تعمل وتكدح وتنافس وتزاحم ، ولا

تملك حق التصرّف فى ممتلكاتها ، وتتحول فى كثير من الأحيان إلى مجرد متعة يلهو بها الرجال ، أو سلعة فى معارض التمثيل والإعلانات والفنون الهابطة .

القوم عندنا يقلّدون سادتهم فى الغرب ، ويريدون للمرأة المسلمة أن تكون كذلك ، ولذا يروّجون للأدب الجنسى المبتذل ، ويدعون للاختلاط . ويتصايحون من أجل حرية المرأة الضائعة ، فى الوقت الذى لم ينصفوا فيه إسلامهم الذى يعد أوّل من كرّم المرأة وارتفع بشأنها ومنحها حق اختيار الزوج وحق الطلاق ممن تكره (الخُلْع) ، وأبقى لها على اسم أبيها وعائلتها ، وصانها من الابتذال والعبث ، وجعل الجنة تحت قدميها إذا كانت أمًّا ، وفى كل الأحوال ، فإن ما تملكه لا يستطيع أحد أن يقترب منه إلا بالمعروف .. فلماذا يصرّ القوم على الضجيج واللجاج ؟

إن الترويج للإباحية والاختلاط تحت دعوى حرية الإبداع ، زراية بالمرأة وانتقاص لكرامتها ، ووأدٌ معاصر لا يقل بشاعة عن وأدها فى الجاهلية .. فالمرأة كيان يسمو على وظيفة الدمية الجميلة التى تحقق المتعة وتشبع الشهوة وتثير الشبق ، إنها النصف الآخر للرجل ، الذى يربىّ من يبنى ويدعو ويجاهد لإعمار الكون واستمرار النسل وتجميل الحياة . فلماذا يريد القوم الارتداد بها إلى عصور الجاهلية الأولى والبدائية الفجّة باسم الحرية والإبداع ؟ أو لا

تكون هناك حرية إلا إذا تعرّت المرأة ؟ ولا يكون هنالك إبداع إلا إذا امتهنت المرأة ؟

إن ثقافة العار تصرّ على تعرية المرأة وامتهانها فى الكتابات الأدبية والخطابات الفكرية ! .

سابعاً : إشعال الفتنة الطائفية :

يمكن أن نقرّر أن مثقّفى العار لا يهتمون بالدين أو التدين ، لأنهم يرفضون الأديان ، ويتنادون إلى ما يسمى بالدولة المدنية - أى التى لا علاقة لها بالدين ولو حكمها العسكر - وكثير منهم كان ينتسب إلى الحركة الشيوعية التى تحارب الدين وتعدّه أفيوناً للشعوب ، وهؤلاء يمكن تسميتهم « بالعرب السوفيات » أى الموالين للدولة الشيوعية الأم - التى كانت - وقد تحوّلوا بعد سقوط الشيوعية إلى رهبان فى بلاط العلمانية ، وارتدوا مسوح « التنوير » و« النهضة » و« التقدم » بالمفهوم الذى يتصوّرونه هم ، وليس بالدلالة التى تعطيها اللغة العربية ويفهمها المسلمون .

ومن ثمّ ، كان غريباً وملفتاً للنظر أن يهتم مثقفو العار بما يسمى حقوق الأقلية أو الطائفة غير المسلمة التى تعيش فى المجتمع ، ويدعوا إلى إقامة الكنائس وزرعها فى كل مكان حتى لو لم تكن الطائفة بحاجة إليها ، أو لا يوجد من أفرادها من يملأ ركناً

من أركانها ، وإسقاط ما يسمى « بالخط الهمايونى » الذى أصدره الباب العالى قبل عشرات السنين وينظم بناء المعابد لغير المسلمين .

وبالإضافة إلى ذلك يصرّ مثقفو العار على أن الأقلية غير المسلمة مضطهدة ومظلومة ولا تحظى بحقوقها السياسية والاجتماعية ، حتى لو كان الواقع يثبت مثلاً أن طائفة يبلغ تعدادها أقل من ٥٪ من مجموع الشعب ، تكاد تقف على قدم المساواة مع الأغلبية فى عدّة ميادين (القطاع الخاص مثلاً فى الميدان الاقتصادى) وتحظى بنصيب وافر يفوق النسبة العددية التى تمثلها (فى الوظائف السياسية والحكومية والإعلامية والثقافية ..) .

والإلحاح على الوتر الطائفى انتهازية رخيصة ترقى إلى مستوى الخيانة ، لأن تحريك الأقلية ضد الأغلبية تحت دعوى الاضطهاد المزعوم ، خيانة بكل المقاييس ، فالأقلية حين تمتلئ بهذا الهاجس وتصدّقه ، لن تتردد عن إرتكاب حماقة طائشة تؤدى إلى مضاعفات قد تعصف بكيان الوطن وتقود إلى مهالك لا يعلم كيفيتها أو منتهاها إلا الله .. ومن هنا تتبدى خطورة التحريض الطائفى الذى يقوم به « العرب السوفيات » سابقاً – المستنيرون حالياً – !

* * *

ثامناً : هجاء النفط وزمانه :

يعتقد مثقفو العار أن الصحوة الإسلامية نتاج لظهور النفط وازدهارِ دُوَله ، ولذا يسمّون الثقافة الإسلامية بثقافة النفط ، والمثقّفين الإسلاميّين بمثقّفى النفط ، وفى ذلك أيضاً إيحاءٌ بأن هؤلاء موالون أو عملاء لدول النفط .

والنفط المقصود لدى القوم هو نفط الخليج ، ويستثنى منه نفط العراق وليبيا والجزائر .. فالنفط الأول هو المعْنىّ فى كتاباتهم ، أما الثانى فله خصائص الثورة والنهضة والتقدم والتنوير (؟!) .

والذى يعلمه الناس أن الصحوة الإسلامية كانت ردّ فعل للعار الذى ألحقه الحكام الثوريّون بأمتهم وأنزلوه بشعوبهم ، والهزيمة الساحقة التى أصابت بسهامها كبد كل مسلم عام ١٩٦٧، ولم يكن للنفط دور بعد ، وكان طبيعيًّا أن يصبح للإسلام دوره بعد فشل كل المشروعات الثورية التقدمية القومية التى قامت على اغتصاب كرامة الإنسان المسلم ، ومصادرة حريته ، ونهب أمواله ، وتكريس طبقة اللصوص الثوريّين والجلّادين التقدميّين والأشرار القوميّين .

فلماذا الإصرار على هجاء النفط وزمانه ؟

بالرغم مما قد يقال عن سلبيات النفط ، فقد كانت له إيجابياته فى دعم المهزومين وقادة العار بعد عام ١٩٦٧، وكانت له إيجابياته فى مساندة حرب رمضان ١٩٧٣، وكانت وما زالت إيجابياته فى فتح أبواب الرزق للملايين من عرب وعجم ومسلمين وغير مسلمين .. بل إن مثقفى العار اغتنوا – وما زالوا – بفضل مؤسسات النفط الثقافية ، وبعضهم ارتفع إلى مستوى المليونيرات بفضل النفط وأموال النفط .. فلماذا هجاء النفط وزمانه ؟

أغلب الظن أن هجاء النفط وزمانه يرجع إلى ما ترمز إليه بعض دول النفط فى وجدان المسلمين وأفئدتهم ، حيث انطلق من هناك نور الإسلام يمنح البشرية التنوير الحقيقى ، والنهضة الحقيقية ، والتقدم الحقيقى ، والعزة الحقيقية .. وهو ما يزعج « العرب السوفيات » أو « عرب العلمانية » أو « مثقفى العار » ، ومن ثمّ ، فهم ماضون فى هجاء النفط وزمانه ، وثقافته أيضاً !

ونكتفى بهذه الخصائص البارزة التى تكشف لنا معالم ثقافة العار والتردى ، التى يريد البعض أن يفرضها على الأمة قهراً ، وعسفاً ، وبغياً !

* * *

١ - فضيحة وزير.. أم فضيحة ثقافة ؟

ما زالت العاصفة التى هبّت بعد استجواب وزير الثقافة المصرى فى مجلس الشعب، شديدة وعاتية، لا تهدف إلى الدفاع عن الوزير فحسب، بل تهدف إلى اقتلاع الإسلام من جذوره، والتنكيل بالفكر الإسلامى وتصوّراته، وإرهاب كلّ من يتصدّى للفكر العلمانى أو اليسارى أو الانتهازى الذى يحكم الساحة الثقافية، وينفث فيها سمومه، ويزرع فيها عوامل الجدب والخواء والإحباط .

كان النائب المستقل « جلال غريب » - ويقال إنه كان يساريًّا فى بعض مراحل حياته - قد تقدّم باستجوابه الثانى للوزير القائم على شئون الثقافة، وتناول الاستجواب مجموعة من القضايا التى يجمع عليها كثير من أصحاب الرأى، ويرفضها أصحاب الهوى.. ويمكن تلخيص هذه القضايا فى النقاط التالية :

١ - تتعمد وزارة الثقافة هدم القيم الدينية والخلقية .

٢ - يعتمد وزير الثقافة على مجموعة من المحيطين به لتحقيق ذلك .

٣ - يقوم الوزير باسترضاء الصحفيّين ويخصص لهم

مرتبات شهرية وسفريات إلى الخارج لكسب ودّهم وعدم مهاجمته.

٤ - هناك تقرير ثقافى شهرى ، نصفه هجوم على الأزهر بدعوى أنه يقف ضد الإبداع الفكرى.

٥ - مجلات وزارة الثقافة تقود اتجاهاً تغريبياً وتنشر صوراً عارية وكلاماً خليعاً لا يليق بمجتمع مسلم.

٦ - يكذب الوزير ما نسب للآثار المصرية المسروقة ، وقد امتدت السرقة إلى المتحف المصرى حيث سرقت ١٢٩ قطعة أثرية.

٧ - أخفى الوزير الأموال التى جمعت لترميم الآثار المصرية بعد الزلزال .

٨ - فى مهرجان المسرح لهذا العام عرضت مسرحية عن الشذوذ الجنسى (صحف القاهرة ١٩٩٣/١٢/٢٦) .

هذا ملخص شديد للغاية للنقاط التى أثارها العضو المستقل ، وقام الوزير بالردّ عليها نافياً كل ما ورد فيها ، وقال إننا ننصاع لرأى الأزهر وإن أصرّ على فصل الثقافة عن الدين.. ثم انتقل المجلس لجدول الأعمال .. وانتهى الاستجواب كأن لم يكن!

إلى هنا والأمر يبدو عادياً ، فكم من استجوابات قُدّمت ، ثم انتقل المجلس إلى جدول الأعمال ، لأن أغلبية المجلس الساحقة من

أنصار الحكومة وأتباعها ، ومن الصعب أن يؤخذ أى استجواب مأخذاً جدّياً فى مجلس نيابى شكلى !

ولكن الأمر لم ينته ، فقد استنفر الاستجواب مليشيات الوزير فى الصحف وأجهزة الإعلام ، وأطلقت الميليشيات نيرانها فى كل الاتجاهات منطلقة من قاعدة تقول بأن الاستجواب « إرهاب » نظرى يؤيد « الإرهاب » العملى ! لقد صار العضو « إرهابياً » داخل مجلس الشعب بالرغم من أنه يتكلم ولا يحمل سلاحاً .

وما دام « الإرهاب » وصل إلى « مجلس الشعب » ، فيجب استنفار كل القوى « الوطنية » عبر الصحف والندوات والبيانات والاجتماعات والمسيرات للتعبير عن رفض « الإرهاب » الدينى الأصولى الذى ينشر الظلام ويخنق الإبداع ويصادر الحرية ويهدد المجتمع المدنى ! (تكلّم العضو فى استجوابه عن الإسلام وقيمه وآدابه التى تعارض منهج الوزير) .

ويمكن أن نحدد أهم الأفكار التى تكررت على ألسنة وأقلام « القوى الوطنية » من ميليشيات الوزير من خلال مقولات بعضهم ، كما نشرتها الصحف . ففى صحيفة « الوفد » الصادرة بتاريخ ١٩٩٤/٤/١١ تحقيق طويل مع بعض رؤساء المجلات الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة حول الاستجواب كانت

عناوينه الأساسية على ألسنتهم كما يلى :

- من يريد أن يتكلم عن الثقافة عليه أولاً تثقيف نفسه .
- الاستجواب لا يختلف فى مفرداته عن الخطاب الإرهابى .
- المصريون ما زالوا أصحّاء العقل والروح رغم ما حدث .

وقال رئيس التحرير الأول فى التحقيق عن الاستجواب :

« هذه الحملة مدبّرة وغير بريئة ومقصود بها شىء مختلف تماماً عن الأخلاق والدين ، وأقول مقصود بها السياسة الملتوية التى يعبّر عنها البعض بالديناميت والرصاص ، والآخر فى مجلس الشعب ، والفرق بين الإرهابيّين بالعمل والآخرين بالقول ، أن الأول يقتل واحداً أو عشرين .. ولكن الذين يريدون أن يطفئوا شموع الثقافة يريدون أن يقتلوا الثقافة المصرية » .

وقال رئيس التحرير الثانى فى التحقيق عن الاستجواب :

« إن هذا الاستجواب فى واقع الأمر هجوم إرهابى ظلامى على أنبل وأعظم ما تفخر به الثقافة المصرية العربية (؟) وللأسف كما يحدث فى كل هجوم إرهابى نجد اللغة السقيمة التى لا تلتزم بأبسط قواعد الحوار ولكنها تكتفى بالسباب والشتائم والخطاب غير اللائق .. » . وأضاف :

« ما يدعو إلى الحزن أكثر أن الاستجواب لا يختلف فى

مفردات خطابه عن مفردات الخطاب الإرهابى الذى يحاول أن يدمّر الثقافة المصرية والمجتمع المدنى وكافة الإنجازات الحضارية لمصر » .

وقال رئيس التحرير الثالث عن الاستجواب :

« إن الاستجواب يستهدف مجمل الثقافة الوطنية ، والمستجوب يعبّر عن تيار فكرى وسياسى محدّد » ، وأضاف : « فما جرى فى مجلس الشعب لا يزيد عن كونه استعداءً للسلطة (؟) على الثقافة بمزيد من القهر والقمع ، وليس غريباً أن يكون هنالك تحالف بين الحساسية المفرطة والمرضية تجاه الجنس والتستر بالدين الحنيف وبين قوى الإرهاب المسلح ، وما جرى فى مجلس الشعب يجب النظر إليه على أنه ارتداد عن التقاليد البرلمانية والقيم المصرية .. » .

ونشرت مجموعة من المثقفين - قيل إن عددهم تجاوز الألف ! - بياناً قالت فيه :

« إن هذه الحملة (يقصدون الاستجواب) هى جزء لا يتجزأ من العمل الإرهابى الذى يواجه الشعب .. إننا ندين هذه الحملة المحمومة ونعلن وقوفنا ضدها .. ونؤكد توحّدنا معاً فى مواجهتها » .

كما دعت اللجنة الأدبية بإتيليه القاهرة للكتاب والفنانين إلى

مؤتمر ووثيقة ومسيرة للمثقفين المصريين تتوجه إلى مجلس الشعب ويقودها كاتب مشهور .

وفي جريدة أدبية صدرت فى ١٩٩٤/١/٢ كان العنوان الافتتاحي للمقال الذى كتبه محررها هو : «أعداء الثقافة فى مجلس الشعب» وجاء فيه تعليقاً على موقف الأزهر :

«كما أن محاولة البعض إضفاء قدسية معيّنة على تلك المؤسسة الجليلة أمر مخالف للإسلام ، لأنه لا كهنوت فى الإسلام ، ولا فاتيكان ، وأعتقد أن المتصايحين بمثل هذه العبارات إنما يغازلون قوى أخرى تعمل الآن فى الظلام ولا تعرف معنى الحوار ، أو مجادلة الفكر بالفكر ، إنما تصوّب طلقاتها إلى أصحاب الفكر ، وهناك البعض يرسلون إشارات معينة لتلك القوى التى يظنون أنها سوف تتمكّن فى المستقبل» .

ثم يقول محرر الجريدة الأدبية : «المزعج هو وجود أعضاء مستنيرين لبعضهم عقل تاريخي ، مثل الأستاذ خالد محيى الدين ، وضياء الدين داود ، ومحمود زينهم ، وفاروق خلف ، كيف لزموا الصمت ؟! » .

وتحمل الجريدة المذكورة إلى جانب افتتاحية محررها تصريحاً لرئيس هيئة الكتاب التابعة لوزارة الثقافة عنوانه : تصدّينا للإرهاب ولن نخضع لأنصاره .

هذه أمثلة قليلة تمثّل مجمل الدعوى التى أطلقتها الميليشيات المساندة لوزير الثقافة، والتى تكررها بأساليب مختلفة عبر الصحف اليومية والدورية والبيانات وغيرها .. وهى توضح إلى أى مدى وصل «القمع الثقافى» الذى تمارسه الأقلية المستبدة المسيطرة على مقدرات الفكر والثقافة فى قلب الأمة العربية وأطرافها .. هذا القمع الذى ينكر على عضو مجلس الشعب أن يستخدم حقّه الدستورى والقانونى فى مساءلة وزير ارتكب العديد من الأخطاء والخطايا فى حق وطنه ودينه وأمته .. وصار المطلوب الآن من كل شخص ينكر على الوزير أخطاءه وخطاياه أن يفكّر ألف مرّة قبل أن ينطلق بكلمة واحدة، لأن الميليشيات الجاهزة لإطلاق النار ستقوم بتأديبه وإسكات صوته أو التشهير به على الأقل، فى نوبةٍ مركزةٍ من الهجوم الكاسح عبر جميع الصحف والمجلات التى تقع فى دائرة سلطانها ونفوذها.

وتتكون ميليشيات الوزير من خليط متنافر تجمعه الرغبة المشتعلة فى اقتلاع الإسلام والقضاء على ثقافته وأخلاقه وقيمه .. لأن الإسلام وحده هو الذى يهدد وجودهم الفكرى والمعنوى والعقدى .. ويضم الخليط المتنافر: الشيوعى المتطرف، والطائفى المتعصّب، والبعثى المرتزق، والانتهازى الباحث عن المنفعة أيًّا كانت، والمستغرب المنبهر بالغرب وسلوكياته، والموالى للطاغية

الأرحل، والمؤيد للحكم الشمولى. والملحد الذى يرى فى الإسلام عقبة تحول دون رغباته ونزواته .. وغيرهم ..

لقد اتفق هذا الخليط فى ظرفٍ حرج تمرّ به البلاد على إعلان نواياهم ضد الإسلام والمستمسكين به، وربطوا فى عدوانٍ آثم كل صوت يرتفع دفاعاً عن الإسلام والأخلاق بحرب الثارات المشتعلة بين السلطة وبعض الجماعات، ومن خلال التدليس الفكرى رأوا أن مواجهة أفكارهم المنحرفة وأدبهم الرخيص «إرهاب» تجب مواجهته والقضاء عليه !! ومن ثمّ؛ اتخذوا من الوزير واستجوابه تكأة لإعلان الحرب على الإسلام.

والقضية فى كل الأحوال، لم تعد انحرافاً يمثّل فضيحة شخصية لوزير ضلّ عن الطريق السوىّ، بل تمثّل فضيحة لثقافة غريبة عن ثقافة الأمة وهويّتها وشخصيتها.

فالوزير المذكور، مذ تولى الوزارة فى ظروف غريبة وملابسات غامضة، وهو يصادم الأمة بآرائه وأفكاره، لم يكن أبرزها تصريحاته التى ترفض الإسلام رفضاً صريحاً عندما تحدث لجريدة «الأهالى» عن رفضه لما يسمى «بالخيال الغيبى» - أى رفض الغيب الذى هو ركن أساسى فى إيمان المسلم - ولم يكن أقلّها كلامه فى مجلس الشعب عن رفض الربط بين الثقافة والدين

حيث قال : « علينا أن نبعد مسألة الأديان عن الثقافة » ، مما جعل النوّاب بالرغم من ولائهم للسلطة ، يضجّون بالرفض والسخط على كلامه .

ولم تكن استعانة الوزير بالنوعيات الهزيلة والانتهازية إلا حلقة فى فرض الثقافة المغشوشة الهادفة إلى إزاحة الثقافة الإسلامية ، وتغريب المسلمين ، فالذين استعان بهم الوزير - بعد أن رفضه المثقفون الحقيقيّون - يتفّقون على كراهية الإسلام والانتماء إليه ، كما سبقت الإشارة ، وهم بعدئذ على استعداد لتنفيذ أية سياسة ، طالما سيربحون من ورائها ، وما دامت خزائن الدولة ستنفتح أمامهم وتملأ جيوبهم وأفواههم .. وهو ما تمّ بالضبط ، حيث وزع الوزير عطاياه - أى أموال المسلمين - على ميليشياته ، فجعلهم مستشارين ، ورؤساء تحرير ، وخبراء ، وأعضاء لجان ، وفائزين بالجوائز ، ومديرى مؤسسات ثقافية ، وحاملى أوسمة ونياشين ، وأصحاب مؤلفات رديئة تصدرها هيئة الكتاب ... إلخ ، وفى الوقت ذاته تخلص من معظم الشرفاء الذين يرفضون جريمته الثقافية فى حق بلادهم وأمتهم ، ولعل ما يحدث فى هيئة الآثار منذ توليه حتى اليوم خير برهان .

بالإضافة إلى ما سبق ، فإن الوزير لجأ إلى نمط من الدعاية رخيص هو إقامة المهرجانات أو « المهارج » ، ينفق فيها أموال

الدولة فى سفه غير مسبوق دون عائد يذكر . ولعل مهارج السينما والمسرح والموسيقى وغيرها ، فى القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وأسوان أبرز الأدلة على ما أنفق فيها ، وعلى النتائج المسفة التى تسفر عنها ، وما يقوله الناس عن ابتذالها وسفالتها يعبّر عن المدى المتردّى الذى يحرص الوزير وميليشياته على أن يصل إليه الشعب المصرى المسلم وبالتالى بقية الشعوب العربيّة .. إن الذين يشاهدون الأفلام أو المسرحيات التى تعرضها هذه المهارج ، يؤكدون أنها لا تعرض أفكاراً ذات قيمة ، أو موضوعات تجمع الثقافة والمعرفة إلى الفن والمتعة ، ولكنها تدور فى فلكٍ واحد هو العنف والدم والجنس والعرى والشذوذ ، ولا شىء غير ذلك .

نشرت جريدة « الشعب » على صفحتها الأولى فى ١٠/٩/١٩٩٣ تحت عنوان : « وزير الثقافة يرعى العرى الفاضح والحض على الرذيلة » ما يلى :

وشهد مهرجان المسرح التجريبى جريمة أخلاقية بشعة ، كاملة الأبعاد بعرض مسرحيتى « خبايا العالم » فنزويلا ، و « حلم ليلة صيف » لإسبانيا اللتين تحرضان على الرذيلة وممارسة الجنس علانية ، ولا تشتملان إلا على مشاهد العرى الفاضح ، والممارسات الجنسية الداعرة ، عبر مشاهد فاضحة ومخزية على مسرح دار الأوبرا والمسرح القومى . فى المسرحية الأولى يظهر

الممثلون شبه عراة ، بل إن الممثلات تعمّدن رفع الغلالة الشفافة من على أجسادهن حتى يظهر الجزء الأسفل عارياً تماماً وحتى منطقة الصدر ، كما يقوم الممثلون بمضاجعة الممثلات على خشبة المسرح بشكل سافر ومتوحش ، وتجلس الممثلات وضع القرفصاء بحيث تظهر أعضاؤهن التناسلية ، ويقمن بأداء حركات جنسية عنيفة تحرّض على ممارسة الجنس بشكل فاضح ومثير . وامتلأت المسرحية بالرقصات والأصوات الغريزية المبحوحة والإضاءة المتوحشة التى تشعل نار الجنس على المسرح .

والأخطر من ذلك أن المسرحية تظهر عالم المتدينين بأنه العالم الحقيقى للفسق والدعارة ، ففى المشهد الذى يرتدى فيه الممثلون والممثلات مسوح الرهبان والراهبات ، ويظهر فى خلفية المسرح الصليب رمز الإيمان المسيحى يخلع الجميع مسوحهم ، ويتحولون إلى أبطال لعالم الدعارة ، ويمارسون الجنس العنيف ، وينتهى المشهد فى آخره بالصراع على داعرة بعينها من بين الداعرات !

ويعلق المسئولون عن المهرجان على هذه الفضيحة بأن المسرحية تقدم فى بلادها ، وأن بلدهم هى التى اختارتها لتمثيلها فى المهرجان .

وفى الوقت الذى كانت تقدم فيه عروض المسرح التجريبى فى القاهرة ، كان هناك مهرجان آخر للسينما فى الإسكندرية هو

المهرجان التاسع الذى كان يعرض أفلاماً جنسية فاضحة تمارس فيها الرذيلة علناً دون حياء - أ. هـ.

هذه بعض ملامح سياسة الوزير التى لا تقرّها أعراف أو تقاليد أو قيم فضلاً عن الدين والأخلاق. بيد أن الوزير يرى فى سياسته تفتحاً واستنارة وتحضّراً، ويصف المعارضين له بالانغلاق والتجمد والتحجر، لأنه مقتنع بأن الثقافة الحرّة لا علاقة لها بالأديان!

فهل ما يراه الوزير صحيح؟ وهل ما يقدمه للناس يعدّ ثقافة حرّة بالمعنى الحقيقى للثقافة والحرية؟ أم إن الوزير وثقافته فضيحة على المستويين الشخصى والثقافى؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه بإذن الله.



٢ - فضيحة وزير .. أم فضيحة ثقافة ؟!

يخبرنا وزير الثقافة أن الدين لا علاقة له بالثقافة ، وأن الأديان يجب أن تكون بعيدة عن الثقافة ، لأنها إذا اقتربت - وهذا استنتاج منطقى من وجهة نظر الوزير - فإن ذلك يعنى أن يتوقف الإبداع ويتجمد الفن ، ويتوقف الابتكار .

وهذا الكلام نغمة قديمة معروفة منذ زمان بعيد ، وهى تعنى فيما تعنى حرّية التخريب الثقافى والفكرى لشخصية الأمة وذاتيتها ، وإتاحة الفرصة للتحلّل والانفلات والبعد عن تناول قضايا الأمة وهمومها وآمالها ، تلك القضايا التى ينبغى أن تلحّ على وجدان الكتّاب والأدباء والفنانين ، بفعل الضمير الدينى الذى هو صانع الضمير الوطنى والقومى والإنسانى جميعاً .. وإذا تخلى المثقف عن هذا الضمير فإنه لا يعدّ مثقفاً حقيقياً فى العالم الإسلامى أو فى العالم الغربى الذى يقتدى به الوزير وميليشياته ، وإذا كان الوزير لا يثق فى كلام المسلمين ، فنحن نقدم له كلام واحدٍ من كبار المثقفين فى العالم الغربى ، ويقلّده العديد من المثقفين العرب ويشيدون به ويستشهدون بمقولاته وأفكاره وأشعاره .. إنه الكاتب والشاعر الأشهر (ت. س. إليوت)

صاحب القصيدة المشهورة (الأرض المقفرة) .. يقول الرجل عن علاقة الثقافة بالدين :

« فى المسيحية نمتْ فنوننا ، وفى المسيحية تأصلّت - إلى عهد قريب - قوانين أوربا ، وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الدين المسيحى ، وقد لا يؤمن فرد أوربى بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله ويأتيه من تراثه فى الثقافة المسيحية ، ويعتمد فى معناه على تلك الثقافة » .

ويقول : « ما كان يمكن أن تُخْرِج فولتير أو نتيشة إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوربا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحى اختفاء تاماً . ولا يرجع اقتناعى بذلك إلى كونى مسيحيًا فحسب ، بل إنى مقتنع به أيضاً بوصفى دارساً لعلم الإحياء الاجتماعى .

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذ يكون علينا أن نبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة ، يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ليُغذى الضأن ليعطى الصوف الذى سيصنع منه رداؤك الجديد . يجب أن تمرّ بقرون كثيرة من الهمجية ، ولن نعيش إذاً لنرى الثقافة الجديدة ، لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا »

(ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة ، ترجمة شكرى عياد، ص ١٤٥) .

لا ريب أن الوزير المستنير (؟) سوف يدهش لأنه يقرأ - ربما لأول مرّة - أن كاتباً كبيراً مثل «إليوت» يجعل المسيحية أساس الثقافة الأوربية ، وأن «فولتير ونيتشة» نتاج الثقافة المسيحية ، وأن ثقافة أوربة ستذهب إذا ذهبت المسيحية .. والسؤال هو : لماذا لا نْجعل الثقافة فى بلادنا أساسها الإسلام؟ أم إن الوزير وميليشياته قرروا اقتلاع الإسلام نهائياً باسم «التنوير» ؟

لا ثقافة بغير دين .. أيّا كان هذا الدين. هذا ما قرّره الأقدمون والمحدثون ، وأثبتته التجارب وأحداث التاريخ وقصة الحضارة الإنسانية .. فلماذا يتغاضى الوزير وميليشياته عن ضرورة انطلاق الثقافة من الدين وقيمه وأخلاقه ومُثُله؟

إن الثقافة التى يسعى الوزير إلى إشاعتها ونشرها بوساطة ميليشياته هى ثقافة التبعية والذيلية ، وهى فضيحة بكل المقاييس ، فلا يوجد فى العالم أمة تهاجم دينها ، وتدعو إلى نبذه ، واقتلاعه ، كما تفعل وزارة الثقافة فى بلد الأزهر الشريف ، ولنتأمل كلام رؤساء التحرير الذى أوردناه من قبل ، فرئيس التحرير «البعثى» الذى لا يملك من الثقافة الحقيقية ما يجعله مثقفاً حقيقيّا يتهم غيره

من أصحاب الثقافة الإسلامية بالجهل والتخلف والإرهاب ، ولا أظن أن أحداً سيصدّقه ، لأن ما يقوله هو مجرد ترديد بيّغاوى لما يُلقّن له فى سهرات الوزير الحافلة بالنشوة والسرور .. والتلقين يعبّر بصفة عامة عن صياغة ماركسية إلحادية يقوم بها بعض المتسلّقين الذين قضوا أعمارهم فى التنظيم الطليعى وكتابة التقارير الملفقة ضد الشرفاء ، أو العمل فى الظلام ضمن الخلايا الشيوعية ، أو خدمة التوجّهات الطائفية المتعصبة !

إن رئيس التحرير « البعثى » عندما يصف مواجهة ثقافة التبعية التى يروّج لها الوزير بالإرهاب وأنها حملة مدبّرة ، فإنه يقوم بدور لا يتفق مع طبيعة المثقف الحقيقى الذى يفترض فيه التصدّى لإرهاب السلطة ، لا مواجهة المدافعين عن هوية الأمة .. و« البعثى » الذى يخدم سلطة قمعية يحكم على نفسه بالخروج من دائرة الثقافة إلى دائرة أخرى تؤمن بمقولة « حاضر يا أفندم » !

ومثل رئيس التحرير البعثى زميله « الناصرى » الذى يسمّى الخطاب الإسلامى بالخطاب الإرهابى .. فالإسلام لم يكن فى يوم إرهاباً ، ولم يكن محرّضاً على الإرهاب .. بل كان مقوماً للإرهاب والإرهابيّين من عينة مثقفى السلطة وشهود الزور ومحامى الشيطان .. ولا ريب أن المثقف الذى يتكلم العربيّة ويكتب بها ويسمى الإسلام بالإظلام ، ويرى الحركة الإسلامية

حركة إظلامية ، هو خائن لثقافة الأمة ، خادم للسلطان .. وأعتقد أن رئيس التحرير « الناصرى » ، بما تمثّله الناصرية من قهر وعسف وظلم وديكتاتورية بشعة وخسّة فى التعامل مع أبناء الشعب ودين الشعب وأخلاق الشعب ، يعلم جيداً أن الإسلام نور ، وأن الدفاع عنه حقٌّ وواجب وجهاد ، وأن الصمت عن أولئك المخربين الذين يخربون عقيدة الأمة أمر غير مقبول ولا تقرّه شريعة ولا قانون .

لقد كان رئيس التحرير « الناصرى » مُبالغاً ، ومخالفاً للحقيقة ، حين ذكر أن الهجوم الإرهابى الظلامى (كما يسميه) أو الاستجواب الذى قدمه نائب الشعب ، يستهدف أعظم وأنبل ما تفخر به الثقافة . فما هو هذا الأعظم والأنبل ؟؟ هل هو التجديف فى حق الذات الإلهية الذى نشرته مجلة زميله البعثى ؟ أم الصور العارية التى لا تليق بأمة الإسلام ؟ أم الجنس الفجّ الذى لا يحمل أثارة من فنّ أو ذوق . أم الدعوة إلى العلمانية ونبذ الدين (الإسلام وحده) ، وتقليد أوربة فى مباذلها وتقديس نفاياتها ، والسجود لأصنام القهر والبطش والأحكام العرفية .

إن رئيس التحرير (الناصرى) جانبه الصواب ، حين وقف موقفاً مزرياً من حق النائب فى استجواب الوزير ، وحين أصر على فرض الرأى الواحد والفكر الواحد والاتجاه الواحد .. إنه موقف مخزٍ من شخص يفترض فيه أنّه مثقف وأستاذ جامعى يدرس اللغة

العربية وآدابها ، ويتكئ بالضرورة على ثقافة إسلامية ناضجة ، وتعرف جيّداً ما هو صواب ويتّسق مع الإسلام ، وما هو خطأ ويتنافى مع الإسلام .. ولكن العقيدة « الناصرية » الشّمولية أعمته عن إدراك ذلك ، وجعلته يقف فى صفّ الثقافة الهشة أو الثقافة الفضيحة التى يروّج لها الوزير .

أما رئيس التحرير الثالث وهو « طائفى متعصب » ، وكان زعيماً شيوعيًا فى يوم ما ، فهو يتحدث عما يسميه مجمل « الثقافة الوطنية » ، وأن الاستجواب قد استهدفها . ونحن لا ندرى ماذا يقصد بمجمل الثقافة الوطنية ! إنها فى مفهومنا ، ومفهوم المصريّين جميعاً (مسلمين وغير مسلمين) هى الثقافة الإسلامية وما تضمنه الثقافة الإسلامية ، أما الثقافة غير الإسلامية ، أو قل الثقافة الهشة التى يروّج لها الوزير ، فهى ليست من الوطنية فى شىء ، لأنها مجلوبة من بلاد أخرى ، أو قل من نفايات بلاد أخرى . ولذا فنحن نرفضها ، ويرفضها نائب الشعب الذى وقف تحت قبة البرلمان ليستنكر مخطط الوزير لإشاعتها ونشرها واستخدام أموال المسلمين لتنفيذ هذا المخطط .

ولن تنطلى على أحد تلك المحاولة الرخيصة التى يحاول الطائفى المتعصب أن يظهر من خلالها بمظهر « البطل » عندما يتهم النائب بتأليب الحكومة لقمع الإبداع وتشديد قبضة الرقابة على

الأعمال الفنية. فصاحبنا ليس بطلاً ولن يكون، لأن تاريخه يتحدث عن خدمته الدائمة للأنظمة القمعية، والبحث عن أموال النفط أينما كانت: لدى العقيد أو لدى المهيب أو لدى غيرهما.. هذه واحدة، أما الثانية، فإن الحكومة التى يعمل لحسابها، وتستخدمه لمهاجمة الإسلام فى مقالاته وغيرها، لن تعترف ببطولته أبداً، لأنها تعرف من هو.. ثم إنها كونت أخيراً تحت رئاسة الوزير نفسه مجلساً أعلى للرقابة يضم رفاقه الناصريين والشيوعيين والملاحدة والعلمانيين، ووضعت بينهم رجلاً طيبًا - أشك فى كونه يعلم حقيقة هذا المجلس - وذلك للتخلص من الرقباء الذين لديهم بقية من انتماء للإسلام أو قيم الأمة.. فكيف يريد المذكور أن يقنعنا بأن استجواب النائب للوزير سيدفع الحكومة لتشديد الرقابة؟

إن الحملة الشرسة على من يواجهون ثقافة التبعية والذيلية تمثّل «الإرهاب الحقيقى» الذى لا يملك شرف الخصومة الفكرية، ولا نبل الفروسية الحقيقية.. ولو أن ميليشيات الوزير، المستفيدة من عطاياه، كانت تملك الإخلاص فى رؤيتها وفكرها ما أنكرت حقًّا دستوريًّا يستخدمه صاحبه للدفاع عن هوّية الأمة استخداماً سلميًّا وعلنيًّا من أجل أن تستقيم الثقافة على الطريق، ويستقيم الوزير على الجادّة.

إن الكتّاب الذين يحرّضون على هذا الحق الدستورى يرتكبون جريمة كبرى فى حق بلادهم وأمتهم وحق الأجيال القادمة لأنهم يقدمون أنموذجاً رديئاً لمواجهة الرأى الآخر .. أو قل رأى الأمة لأنهم لا يعبرون عن رأيها ولا وجدانها ولا ثقافتها .

ولا أدرى ماذا يريد كاتب يستنفر السلطة التى تستخدمه بقوله إن النائب الذى يستجوب الوزير يبعث برسالة إلى قوى معينة فى ظل الظروف التى يشتد فيها الصراع بين السلطة والجماعات ؟؟ هل يريد من السلطة أن تذبح النائب ؟ أم يريدها أن تقوم بقتل كلّ من يذكر اسم الله تعالى والرسول ﷺ والقرآن الكريم ؟

قد يكون مفهوماً أن يستنفر الكاتب رفاقه أو أساتذته الشيوعيين أو الناصريين فى مجلس الشعب ليقفوا مع الوزير ضد إرادة الأمة وإسلامها ، ولكن استنفار السلطة للقضاء على الإسلام عمل معيب يذكرنا بتقارير التنظيم الطليعى وأساليبه الرخيصة الإرهابية !

لقد كان الشعب يتمنى أن تقوم ميليشيات الوزير بالردّ على ما قاله النائب المستجوب ، ردًّا علميًّا حقيقيًّا يعبّر عن ثقافة حقيقيّة .. أما الردّ بالتحريض والإرهاب والتشويش ، فهو دليل

على الإفلاس الفكرى الذى تدعمه السلطة، ولكنه لن يجدى فتيلاً، بدليل أن الوزير يغدق الكثير من أموال المسلمين، دون أن يكسب أنصاراً مرموقين.

إن ادعاء الاستنارة لا يكفى، لأن الاستنارة الحقيقية هى التى تنبع من ثقافة الأمة وهوّيتها الحقيقيّة.. وللأسف الشديد، فإن الآخرين من مثقفى الأمم الأخرى كانوا على ولاء تام لعقائدهم على عكس مثقفينا المتصدّرين للساحة الثقافية.. وقد رأينا كيف تحدث إليوت عن الثقافة المسيحية أو الثقافة القائمة على الإيمان المسيحى، وهاهم اليهود ينتجون أدباً أو ثقافة تعتمد على التوراة، وكذلك البوذيون والهندوس والوثنيون.. كل ينطلق من مفهومه العقدى والإيمانى أيّا كان هذا الإيمان أو تلك العقيدة.. ولا نجد أديباً نصرانياً أو يهودياً أو وثنياً يهاجم عقيدته أو دينه.. بل إن مثقفينا الذين يهاجمون الإسلام، لا يجرءون أن يهاجموا عقيدة أخرى أو ديناً آخر.. ومن الغريب أنهم يربطون كل نواحى التقدم بالعقائد الأخرى أما التخلف والجمود والتأخر فيربطونها دائماً بالإسلام!

تأمل مثلاً غلاف إحدى المجلات العربية التى تصدر فى مصر المسلمة وهو يضع عنواناً كبيراً يقول: «الكنيسة والحرية» وتأمل غلافاً آخر للمجلة نفسها يحمل عنواناً كبيراً: «الأزهر والجنس»

ثم تأمل عنواناً على جريدة أدبية يقول : « البابا شنودة يفتح المكتبات أمام الجمهور » وعنواناً آخر للجريدة نفسها يتحدث عن الأزهر وسلطانه وهيمنته !

إن الفارق فى العناوين يكمن في ربط الحرية والثقافة بالكنيسة ورجالها .. وربط الجنس والتسلّط بالإسلام وعلمائه .. ولاحظ أن الذين وضعوا هذه العناوين يحملون أسماء إسلامية ، والإسلام دينهم الرسمى فى شهادة الميلاد .. فهل هذا الأمر عفوى ؟ أم إن ما يفعلونه يعبّر عن قصد وسبق إصرار مع توجيه من جهات معينة ؟ وهل هذا هو التنوير الذى يروّجون له ؟

لقد كان الأزهر - قبل قهره وسلبه عناصر نموّه - رمزاً للاستنارة الحقيقيّة القائمة على ثقافة الإسلام ، وكان رمزاً للبطولة ومقاومة الطغاة والغزاة ، وكان ملجأ للأحرار والشرفاء .. وظل آخر معقل من معاقل تهديد الطامعين فى البلاد والعباد .. لذلك قرّر الطاغية « جمال عبد الناصر » أن يصفيّه بقانون تطويره .. وتم له ما أراد .. ولكن أنصاره لم يرضهم أن يبقى الأزهر ولو مجرد هيكل ، فأخذوا الآن يحفرون عند جذوره حتى لا يبقى منه حجر !

إن استجواب النائب المستقل لوزير الثقافة ، قد كشف للأمة

ألاعيب العلمانيين واليساريين، وأظهر مدى كرههم للإسلام وأتباعه.. وإذا كان هؤلاء يجدون الدعم من السلطة، والتشجيع من الوزير الذى يستخدمهم ميليشيات مأجورة تدافع عنه، فإن الشعب يزداد تمسكاً بإسلامه وأخلاقه، ويعرف من هو الإرهابى الحقيقى الذى يمارس الإرهاب بلا خلق ولا شرف.. ويعرف أيضاً أن ما جرى كان فضيحة للوزير.. وفضيحة للثقافة التى يروّج لها ويسعى لنشرها.. لأنها ثقافة الخواء والهوان، واسلمى يا مصر.



١ - ثقافة العار .. والهجوم على الأزهر

ثقافةُ العار ثقافةٌ مستبدَّةٌ قمعيَّةٌ ، وآية ذلك أن أهلها لا يعترفون بالآخر ، ولا يريدونه فى الساحة الثقافية ، وإذا وجدوه حكموا عليه بالنفى ، وإن استطاعوا قتله بالصمت والتزوير والتشهير ، أقدموا ولم يترددوا !

وثقافةُ العار تكره جذور الثقافة الأصلية التى تمتدّ جذورها إلى أعماق الوطن والشعب والأمة ، وإذا كانت ثقافة العار تعلن دائماً عن ضرورة الحوار مع الثقافات الأجنبية ، فإن المفارقة أنها تعيش خصومة دائمة مع الثقافة الوطنية التى يصنعها الإسلام ، وتصوغها الحضارة الإسلامية ، ثم تتبّرأ من دعاواها الكاذبة عن الحوار ، بالحديث عن فصل الثقافة عن الدين ، وضرورة هذا الفصل حتى تزدهر الثقافة كما يتصوّر أنصارها ، فى حين أن سادتهم أعلنوا على الدنيا أن الثقافة هى الوجه الآخر للدّين .

ويبدو أنهم يفاخرون بثقافة سادتهم طالما كان الدين ديناً آخر غير الإسلام ، لأن الإسلام من وجهة نظرهم محظور عليه أن يكون له موطئ قدم فى أىّ من مجالات الحياة أو الحضارة .. أما

غيره ولو كان ديناً وثنياً أو وضعيًا فمسموح له أن يفعل ما يريد ، ولو كان تقديس بقرةٍ والخشوع أمامها !

فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة ، وقفت إحداهن أمام رئيس الدولة فى أثناء اجتماعه بكتّاب السلطة وأنصارها من الشيوعيّين والعلمانيّين وأصحاب المصالح ، وطالبته بأن يأمر بجمع الكتب والشرائط الإسلامية من المكتبات والأسواق ، لأنها فى زعمها تنتقص من حرّية المرأة وكرامة المرأة وكيان المرأة . وردّ عليها رئيس الدولة بأن ذلك غير ممكن! (صحف القاهرة ١٩٩٤/١/٢٨) .

وفى الوقت الذى يتباكى فيه مثّقفو العار على حرية التعبير والإبداع ، لأن السلطة صادرت مجموعة من الكتب البذيئة والساقطة مثل رواية « العراة » وديوان « آية جيم » ، و« أنا بهاء الجسد » و « مخلوقات الأشواق الطائرة » .. فإنهم يسعون إلى قهر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية ، ويعملون من أجل ذلك بكلّ السبل والوسائل ، واستعداء السلطة علناً ، بالرغم من أنها ليست فى حاجة إلى هذا الاستعداء ، لأنها تقوم بما يريدون وزيادة .

إن سيّدة علمانية ترفض مبادئ الإسلام بالنسبة للمرأة

وحجابها وعلاقاتها داخل المجتمع ، لا تتورّع أن تطالب رئيس الدولة ، على رءوس الأشهاد (أذيع الحديث تلفزيونيا) ، بمصادرة الفكر الإسلامى والكتب الإسلامية ببساطة متناهية بحجة أن هذه الكتب وذلك الفكر يسيئان إلى المرأة المصرية ، ولم تقل لنا السيدة العلمانية ما هى الإساءة التى وُجّهت إلى المرأة المصرية ، وأزعجتها إلى هذا الحدّ الذى تُعلن فيه عن هويّة قمعية مستبّدة بغيضة ؟

وليست هذه السيّدة العلمانية وحدها التى تتبنى لغة الاستبداد والقمع ، فالوزير الذى وضعوه ليكون مسئولاً عن ثقافة زماننا المخجلة ، يصف النقاد الذين يؤيّدونه ويروّجون لسياسته الثقافية الاستعراضية بالشرف ، أما الذين يعارضون ثقافة العار فيصفهم بالخسّة والدناءة والغرض ! (الأهرام ١٩٩٤/٢/١) ، مما يعنى « مكارثية » مصرية جديدة لم يعرفها الناس من قبل أن يسمعوا هجاء الوزير !

ويتبنى رموز الثقافة الراهنة - ثقافة العار - المنهج « المكارثى » ذاته ، حين يدافعون عن المارق « سلمان رشدى » صاحب « آيات شيطانية » ، وحقّه فى التعبير والإبداع ، بالرغم من أنهم يعلمون جيداً أنه يعبث بالمفاهيم الإسلامية ، ويعتدى على حرمة الرسول ﷺ وزوجاته ، وعندما يصدر فى باريس كتاب بالفرنسية بعنوان

« مائة كاتب من العالم الإسلامى يدافعون عن سلمان رشدى »
وتتأمل هذه الأسماء المائة فإنك تجدها الأسماء المشهورة التى تطالعنا صباح مساء، على صفحات الصحف والمجلات التى تصدر بأموال المسلمين، وتكافأ على مقولاتها الخبيثة بأموال المسلمين.. هذه الأسماء المشهورة تتنكّر لدينها أو إسلامها من أجل المارق الهندى دون أن تخجل من أمّتها أو الرأى العام الذى يحرص على دينه وإسلامه فى كل الأحوال، وفى الوقت ذاته لم نجد أحداً من هؤلاء يستنكر ما قالته السيدة العلمانية عن جمع الكتب والشرائط الإسلامية التى لا تعجبها!

السرّ فى ذلك واضح ومعلن، إنهم يريدون حرية التعبير لأنفسهم، وبخاصة إذا كانت فى مجال هجاء الإسلام والهجوم على علمائه، ومصادمة شعور الأمة بالكتابات الإلحادية والجنسية والمقلدة للغرب، أما غيرهم، فلا حرية له، ولا تعبير له، ولا إبداع له!!

لقد أصدر بعضهم بياناً نشرته إحدى الجرائد الأدبية فى ٢٣/١/١٩٩٤، يقولون فيه:

« المثقفون المصريون المجتمعون بأتيليه القاهرة على مدى ثلاثة اجتماعات فى الفترة من ١٤ إلى ١٨ يناير ١٩٩٣ (يقصد

١٩٩٤) بعد أن ناقشوا الأوضاع التى آلت إليها الثقافة فى مصر ، وإدراكاً لمسئوليتهم إزاء المجتمع ، يتوجهون إلى الرأى العام بالبيان التالى :

بات واضحاً من وقت بعيد أن حرِّية التعبير فى بلادنا تتعرض لتهديدات تنبع أساساً من سياق **اجتماعى متخلف تابع يفتقر إلى التقاليد الديمقراطية ، وتستشرى فيه التيارات التجهيلية المعادية للعقل والحرية والإبداع تحت ستار الدين ، وتتضافر معها مجموعة من العوامل منها انعدام العدالة الاجتماعية ، وتفاقم الأزمة السياسية والاقتصادية والرضوخ لإملاءات الثقافة النفطية وقيمها ، والانصياع لمخططات الهيمنة الخارجية ... إلخ »** .

ويمضى البيان على هذا النحو متحدثاً عن الاتجار بالدين ، والحرية المفقودة التى يبحث عنها أنصار التقدم والاستنارة (؟)

وواضح لكل من له أدنى صلة بأدبيات الأحزاب الشيوعية العربية ، أن هذا البيان شيوعى فى مضمونه وأسلوبه ، وإن لم يذكر شيئاً عن الاشتراكية ومرادفاتها ، والإمبريالية وشبيهاتها . وإذا عرفنا أن هذا الإتيليه منذ نشوئه يضم صفوة شيوعية معروفة ، أدركنا لماذا يصرّ على مهاجمة الدين ، ويعدّه سبباً لضياع حرية التعبير وفق مزاعمه .

بيد أن البيان الشيوعى الذى يتخفى تحت رداء التقدم والاستنارة، يحمل تناقضات غير غريبة على من صاغوه، فهم أول من يعلم أن أجهزة التعبير الرسمية والحزبية، قد سقط معظمها فى أيديهم، وأنهم وحدهم أصحاب اليد الطولى فى التعبير عن آرائهم المعادية للإسلام والمسلمين، وأن السلطة لم تكتف بتمكينهم من الصحافة والإعلام وهيئات وزارة الثقافة، بل ساعدتهم فى مدّهم بالمعلومات حول الجهات أو الهيئات أو الأشخاص الذين ينتمون إلى التصوّر الإسلامى، ولعل ما تنشره مجلة «روز اليوسف» التى يقوم على تحريرها مجموعة من الناصريين والماركسيين، تمثل تلك الحالة خير تمثيل .

والبيان الشيوعى حريص كل الحرص على أن يصم التيارات الإسلامية بالجهل والعداء للعقل والحرية والإبداع، ويعلم من كتب البيان أن التيارات الإسلامية تضم صفوة الأمة فى كافة التخصصات العلمية من طب وهندسة وزراعة وصيدلة وتجارة وفكر وأدب وثقافة، وليسوا جهلة كما يدعى البيان، ونماذجهم أشهر من أن تعرّف، ويكفى أن نذكّر كاتبى البيان بالنقابات المهنية التى يقودها الإسلاميون العلماء الأطهار الذين يعرفون حقاً معنى العقل ومعنى الحرية ومعنى الإبداع، ويكفيهم فخراً وشرفاً أنهم رفضوا أن يكونوا خدماً لسلطة مستبدة أو حكومة فاشية .

إن المنصفين من مفكرى الغرب - قبلة مثقفى العار - قد أنصفوا الإسلام وحضارته ، ولعل «آدم ميتز» من أبرز أولئك المفكّرين الذين اعترفوا بفضل الإسلام على حرية الفكر والإبداع ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربة لا تعرف إلا مطاردة العلماء والمفكرين ، وإحراقهم فى بعض الحالات ، ويتحدث «آدم ميتز» عن التسامح الذى تميّز به الإسلام ولم يكن موجوداً فى أوربة فى العصور الوسطى ، ويرى أن مظهر هذا التسامح هو نشوء علم مقارنة الأديان ، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة الإسلامية ، ترجمة أبو ريدة ١/٧٥ وما بعدها) .

دين الإسلام أكبر من ترهات الشيوعيين الذين يسمّون أنفسهم الآن باسم المستنيرين والتقدميّين وأنصار الحكومة المدنيّة - يقصدون المعادية للإسلام - ولو كانت عسكرية تحكم بالقوانين العرفية وتعطى القانون المدنى إجازة مفتوحة إلى أجل مسمى ! . والإسلام أكبر من مزاعم خدّام السلطة المستبدة ، لأنه حرّر العقول والقلوب ، ودعا إلى استخدام العقل وإعمال الفكر والتفنن فى الإبداع وإدامة التأمل ، وللعقاد كتاب مشهور ، لا بد أن مستنيرى الحكم العرفى قد سمعوا به اسمه «التفكير فريضة إسلامية» .

لكن عصر « التنوير المغشوش » يأبى إلا أن يطمس الحقائق ويزورها ويسدل عليها ستار النسيان ، باختلاق الأكاذيب وترويج الأباطيل أو إلباس الحق بالباطل ، وإذا كان البيان الشيوعى الصادر عن إتيليه القاهرة يتحدث عن انعدام العدالة الاجتماعية وتفاقم الأزمة السياسية والاقتصادية - وللشيوعيين على مدى أربعين عاماً نصيب كبير فى إحداث الأزمة - فإن من الغريب حقاً أن يشير إلى الرضوخ لإملاءات ثقافة النفط وقيمها . ونحن لا ندرى تماماً ماذا تعنى ثقافة النفط ؟ وأى نفط يقصدون ؟ هل هو النفط التقدمى الذى يتدفق لدى العقيد القذافى والمهيب العراقى وعسكر الجزائر . أم النفط الرجعى كما يسمونه ويتدفق فى دول الخليج ؟

ولا ريب أن المسألة تختلف كثيراً بهذا المقياس ، فثقافة النفط التقدمى تغاير ثقافة النفط الرجعى ، والقوم لم يوضحوا أى الثقافتين يقصدون ، ولعلهم يقصدون مجمل الثقافة النفطية . وهنا نسأل : هل للنفط ثقافة ؟ وما هى مصادرها وملامحها ؟ . ثم هل هى ثقافة قديمة أم ثقافة طارئة ؟ وكيف نحكم على مثقف ما بأنه مثقف نفطى ؟ هل هو الذى تشتعل حروفه بالحرائق عندما يكتب أو يتكلم ؟ أم هو الذى تنتفخ جيوبه عندما يكتب فى صحف النفط ، ودور نشر النفط ، ومؤتمرات بلاد النفط ؟

لن أطرح أسئلة أكثر من ذلك ، ولكن مثقفى العار ، يصرّون

على أن يوهموا الناس أن النفط هو عدوّ الأمة ، وبالتالى عدوّهم ، وللأسف الشديد ، فإن الكثيرين منهم تحوّلوا من صعاليك يدمنون الجلوس على المقاهى إلى مليونيرات بفضل أموال النفط بشقّيه : التقدمى والرجعى ، وبعضهم تنازل عن مكانته العلمية ليعمل صبيًّا لرجال النفط ونساء النفط نظير مرتبات ضخمة ، وبعضهم له مقالات وكتب تنشر فى صحف النفط ومؤسسات النفط ، وأصدقاؤه النفطيون أكثر من أصدقائه غير النفطيين .

والسؤال الآن الذى يغنى عن كل الأسئلة : لماذا إدخال النفط فى سياق الحديث عن حرية الإبداع ؟ هل لأن الإسلام ظهر فى بلد نفطى مثلاً ؟ أم يعتقد المستنيرون المزيفون أن بلاد النفط تصدر الإسلام إلى غيرها من البلاد ؟

لا شك أن هذه شنشنة معروفة ، وتورية فجّة عن شىء يقصدونه ، وهو ثقافة الإسلام التى تمثل حجر عثرة فى طريقهم وهو طريق التبعية والذيلية للغرب الذى يهيمن أو يحاول فرض هيمنته على بلاد المسلمين . والمفارقة هنا أنهم يزعمون فى بيانهم الشيوعى أن السياق الاجتماعى مهدّد بالانصياع لمخططات الهيمنة الخارجية ، وهم فى الوقت ذاته يهيئون المناخ الاجتماعى لتقبل هذه الهيمنة بتقبل أصحاب المخططات الخارجية ، والترويج لها ، وإطرّاح الإسلام ، وإحلال العلمانية مكانه .. فهل يمكن بعد ذلك

أن نرى فى ثقافة مستنيرى الأحكام العرفية إلا تناقضاً وعاراً يصمهم بالغرض والهوى؟

إننا نريد أن نصدق مثقفى العار فيما يزعمون ، ولكنّهم يتطوعون بتقديم الأدلة على تناقضهم ، وزيف ما يقولون ، ويثبتون بما لا يدع مجالاً للشك أن دعواهم عن الحرية والإبداع دعاوى باطلة وغير صادقة ، لأنهم يريدون الحرية والإبداع لأنصارهم فقط ، أما غيرهم فالويل له ، وخاصة إذا كان هذا الغير يمثل ثقافة الأغلبية أو ثقافة الأمة ، ومن هنا كان هجومهم الخسيس على الأزهر الشريف بوصفه رمزاً للإسلام الذى يرونه عائقاً للحرية والإبداع أو سلطة إرهابية ضد الحرية والإبداع ، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله .



٢ - ثقافة العار .. والهجوم على الأزهر

كان الأزهر - وما زال - قلعة الإسلام الحصينة التى تتحطم على أبوابها حملات الإرهاب المعادية للإسلام ، وظل على مدى ألف عام يدافع عن العقيدة والشريعة والثقافة الإسلامية ضد عمليات الغزو الفكرى والتغريب الثقافى .

وكان الأزهر - وما زال - أبرز نموذج للموضوعية العلمية ، والتسامح الفكرى ، حيث تُدرس فى معاهده وكلياته المذاهب الأربعة ومقارنة الأديان ، دون تعصّب أو عنصرية ، ومنهجه فى الردّ على خصومه هو المنهج العلمى الذى يوضّح الحقائق بالدليل والبرهان .

فلماذا يصرّ مثقفو العار فى زماننا على مهاجمة الأزهر وهجائه ، دون ذنب اقترفه أو جناية ارتكبها ؟ ولماذا يجرءون على علمائه وشيوخه فى الوقت الذى لا يجرءون على الاقتراب - مجرد الاقتراب - من الكنيسة وقساوستها ؟ وهل هناك دوافع وراء سلوكهم المشين ضد الأزهر : الجامع والجامعة ؟

لنقرأ أولاً ، ما قاله بعضهم عن الأزهر وعلمائه وشيوخه ، ثم

نرى بعدئذ أبعاد الحملة الآثمة التى قادها مثقفو العار من الشيوعيين والناصريّين والعلمانيين الذين يخدمون السلطة، ويروجون للحكم العرفى.

أصدرت مجلة «روز اليوسف» فى شهر يناير ١٩٩٤عدداً خاصاً عن الكتب المصادرة بسبب مخالفتها للدين أو للقيم الإسلامية، ونشرت نماذج أو فصولاً من هذه الكتب متحدّية قرارات المصادرة، ومتحدّية الأزهر وعلماءه. ومن الفصول التى نشرتها صفحات من الشعر الجاهلى لطه حسين، وقصيدة لنزار قبانى، وفصلاً من كتاب ألف ليلة وليلة، وفصلاً من آيات شيطانية لسلمان رشدى، وفصلاً من «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ.

وقالت المجلة فى معرض تقديمها للنصوص الشاذّة وكتّابها:

«إن الإسلام لم يعرف المصادرة، لقد كانت الأفكار مفتوحة كالشوارع، ثم جاءت السياسة فطغت وسادت وحرمت وقتلت، ثم جاء تجّار الدين وكهّان التدين فطغوا وسادوا وحرموا وقتلوا، فصار طه حسين كافراً، ويوسف إدريس خائناً، وفرج فودة مرتداً، ونزار قبانى منحلاً.

لقد أصبحت كل الطرق تؤدى إلى التطرّف وتمضى إلى

الإرهاب ، والأزهر يتصدر دور البطولة فى هذه المصادرات ، وقد وضع شيوخه وأساتذته أوصياء من دون الله على كل رأى أو اجتهاد . الأزهر صادر على عبد الرازق وطه حسين ونجيب محفوظ ولويس عوض وفؤاد زكريا وفرج فودة وسعيد العشماوى وغيرهم .

لقد جعل بضعة أساتذة فى مشيخة الأزهر من أنفسهم قضاة على هؤلاء المفكرين العظام ، حجاباً على أفكارهم ، حواجز على آرائهم ، رقباء على كتبهم » .

وإذا كانت « روز اليوسف » بهذا العدد الخاص ، قد وصلت إلى ذروة التهجم على الأزهر ، فقد أصدرت من قبل أعداداً تحمل موضوعات مثيرة ، تطعن فى علمائه وشيوخه ، وتطال أعلامه البارزين ، وتربطه بموضوعات رخيصة وقضايا لا تليق بمكانه وكيانه مثل الموضوع الذى نشرته عن الأزهر والجنس .

وفى صحف ومجلات أخرى تردّدت كتابات مشابهة تركز على اتهام الأزهر بالسلطوية ، ومحاكم التفتيش ، ومطاردة الإبداع ، ومصادرة الفكر ، والكهنوت الدينى ، والحجر على الحرية والتعبير .

وراح مثقفو العار يردّدون مصطلحات الهجوم على الأزهر

فى كتاباتهم وندواتهم، ويصوّرون علماءه وشيوخه بكرادلة الكنيسة فى العصور الوسطى، ويضعون الجميع فى إطار كهنوتى قبيح وبشع!

والسؤال: لماذا يهاجم أعلام ثقافة العار الأزهر وعلماءه؟

لو أننا تتبعنا مجريات الأمور على المستوى العام فى السنتين الأخيرتين لوجدنا عدداً من النقاط، لا بد أن توضع فى الحسبان عند تفسير الهجوم الشيوعى الناصرى العلمانى على الأزهر الشريف:

النقطة الأولى: تتمثل فى موقف الأزهر من قضيّة الرّبا، فقد رفض الأزهر أن يحلّل فوائد البنوك، وبالتالى فوائد القروض التى تثقل كاهل الشعب والوطن، وتربطه بقيود حديديّة إلى عجلة الدول الأجنبية المقرضة. وقد أعلن الإمام جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر - رحمه الله - رأيه صريحاً وواضحاً وقاطعاً على صفحات الصحف اليومية. وصدرت مجلة الأزهر تحمل آراء علماء الدين على صفحاتها، وفى كتيبات أُلحقت بها.

فى ذات الوقت كان هناك موقف مختلف لمفتى الجمهورية الذى حلّل فوائد البنوك وشهادات الاستثمار وفوائد التوفير فى هيئة البريد، معتمداً على اجتهادات ضعيفة وهشّة، ولا أساس لها.

النقطة الثانية : تدور فى إطار موقف الأزهر من الحملة العاتية ضد الإسلام التى تهدف إلى اقتلاعه أو تحويله إلى دين كنسىّ ، وتستغل أحداث العنف الجارية لتصوير الإسلام مصدر متاعب للسلطة والنظام ، فقد رفض الأزهر تلك الحملة وتصدى لها علماؤه وشيوخه بأسلوب هادئ ومقنع ، وهو ما جعل قادة الحملة من الماركسيّين والناصريّين واللّادينيين يرون فى الأزهر عقبة كبرى تحول دون تحقيق أمانيهم ورغباتهم .

كانت الحملة الآثمة ضد الإسلام تتخذ من التطرّف والإرهاب مدخلاً لتشويه العقيدة وتسفيه الشريعة ، وصار من المعتاد أن يطلق لفظ متطرف وإرهابى على كل متديّن أو مؤمن بالتصوّر الإسلامى ، ولأن الأزهر لم يدخل فلك هذه اللعبة ، فقد صار الأزهر يمثّل مشكلة كبرى لمثقفى العار ، وبخاصة بعد أن أجاب شيخ الأزهر الراحل - رحمه الله - فى إحدى الندوات على سؤال حول من هو الإرهابى ؟ فقال الرجل ببساطة : القضاء هو الذى يحدّد من هو الإرهابى ومن هو غير الإرهابى ؟

النقطة الثالثة : وتخصّ رأى الأزهر فى تلك الكتابات السافلة والمعادية للإسلام ، ويروّج لها مثقفو العار فى أجهزة الإعلام والصحف الحكومية التى يسيطرون على مقدّراتها وتحريرها .

هذه الكتابات استعراضات جنسية فجّة تحت مسمّى رواية أو قصيدة أو قصة قصيرة، وهى استعراضات تصادم الذوق والفطرة قبل أن تصادم الإسلام وقيمه، وقد كتبت عن بعضها فى حينه، وسميتها كتابة « الفعل الفاضح »، وعالجت بعضها الآخر فى كتابى « الورد والهالوك »، وهى فى مجموعها لا تمثل فنًّا ولا أدباً ولا فكراً، اللهم إلا العودة إلى حيوانية بشعة تجافى الأخلاق والقيم والعقائد.

والأخطر من ذلك تلك الكتابات التى ترفض صراحة تطبيق الشريعة الإسلامية، وتتعلّل بما يسمى الوحدة الوطنية وتغيّر الزمان، والإدعاء باستحالة التطبيق بعد الخلفاء الراشدين، أو الزعم بأن الشريعة لم تطبق أبداً على مدى التاريخ الإسلامى من خلال كتاب ألف ليلة وليلة!

لقد أبدى الأزهر رأيه فى الكتابات السافلة والمعادية، وقامت الجهات المعنية بمصادرة بعضها. ومن ثمّ، فإن القوم - أى مثقفى العار - جعلوا الأزهر هدفاً لهم، ينبغى إسقاطه والقضاء على ما تبقى من كيانه فى حملة مستمرّة دون هوادة! ومن ثمّ كانت تلك الأوصاف الرخيصة التى ذكرتها « روز اليوسف »، وجعلت منه ذريعة للتطرف والكهانة والتجارة بالدين والوصاية على من

تسميهم بالمفكرين « العظام » . وكان ذلك الفرح الهستيرى لما قاله مسئول كبير حول عدم جواز مصادرة أى كتاب بدون حكم قضائى ، وتفسير هذا القول تفسيراً عدوانياً ضد الأزهر الذى لا يملك بالفعل القدرة على مصادرة أى كتاب ، لأنه ليس جهة اختصاص إنه يبدى رأيه فقط ، ولكن مثقفى العار يستكثرون عليه حق إبداء الرأى !

إن كتابات المفكرين « العظام » كما تسميهم « روز اليوسف » صودرت أو قوطعت ، من جانب الأمة أو جماهيرها العريضة ، قبل أن يبدى الأزهر رأيه فيها بسبب ما تحمله من عبث بالمفاهيم الإسلامية ، والجرأة على العقيدة ، والتطاول على الشريعة ، ولكن مثقفى العار جعلوا الأزهر كبش الفداء ، لأنهم لا يستطيعون مواجهة الأمة التى رفضتهم ورفضت « عظماءهم » !

المفارقة أن بعض هؤلاء « العظماء » قد عدلوا عن آرائهم التى أعلنوها بعد أن عادوا إلى الصواب ، أو اكتشفوا أخطاءهم ، من أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق ، ومع هذا فإن القوم يصرّون على تجاهل ذلك التغيّر ، ويشيدون بما كتبه « العظماء » سلفاً بوصفه « استنارة » و « تقدماً » و «فتحاً مبيناً » !

ذات يوم كتب أحد أفراد الطائفة الإنجيلية فى مصر كتاباً

حول « التطرف النصرانى » تحت عنوان « المسيحية السياسية فى مصر » - وهو تعبير مهذّب عن التطرف ضد الدولة ودينها الرسمى - وعرض لهذا الكتّاب بعض المحرّرين فى الصحف اليومية ، فقامت الدنيا الصليبيّة ، ولم تقعد ، لأن هناك من تجرّأ - فى أدب ورقّة - على مقام الكنيسة ، وكانت اعتذرات وتوضيحات وتصويبات . أما المسألة بالنسبة للإسلام أو الأزهر ، فتعنى أن كل شىء مباح ، وأن الماركسى أو الناصرى أو العلمانى أو الطائفى المتعصّب من حقه أن يفتى فى أمور الدين ، وأن يرفض تعاليم الإسلام ، وأن يشهّر بالعقيدة والشريعة ، فضلاً عن التشهير بالأزهر وعلمائه وشيوخه ، تحت دعوى حرية الفكر وحرية التعبير ! ولا يستطيع عالم أو شيخ أن يجد مكاناً أو منبراً يردّ من خلاله على ما يفعله المرجفون فى المدينة أو المفسدون فى الأرض .

إن الحملة الإجرامية على الإسلام والأزهر تجاوزت كل حدّ ، لدرجة أن بعضهم يرى فيما يذيعه التليفزيون والإذاعة من أحاديث دينية لعلماء الأزهر مصدر جهل وتحريض صريح بالطائفية والانقسام ، والهدف من وراء ذلك ، هو إبعاد العلماء والدين عن أجهزة الإعلام ، ووصل الأمر بقادة الحملة الإجرامية إلى مطاردة عمّال المطابع والمصحّحين فى هيئة الكتاب الذين أذهلتهم الكتابات العبثية الشاذة والمعادية للدين وجرأة كتابها ، ويصوّر

مثقفو العار موقف الناس من شذوذهم بالمناخ الإرهابى (!) ويرون فى المقالات المدافعة عن الإسلام والأزهر غطاء شرعياً للإرهاب وحملة ضد اللوحة والقصيدة واللحن !

ومن أطراف ما جري فى هذا السياق أن هيئة الرقابة الإدارية - وهى جهاز حكومى مهمته التفتيش على أوجه الإنفاق وسلامة ممتلكات الدولة - أقحمت فى مجال الحملة على الأزهر ، ونالت نصيبها من التشهير والتشويش ، فقد نشر أحدهم خبراً رئيسيًّا فى جريدته يقول : « قامت لجنة من الرقابة الإدارية بمداهمة الهيئة العامة للكتاب ، ومعها قائمة بعناوين مجموعة من الكتب والإصدارات ، وقامت بتقصى الحقائق حول كيفية إصدارها ، والقرارات المحيطة بطبعها ونشرها ! وأصدرت اللجنة توجيهات بعدم التصرف فى هذه الكتب التى يتنوع مضمونها بين الشعر و القصة والرواية » .

وانتهز كاتب طائفى متطرف الفرصة ليدلى بدلوه ليهاجم من يسميها بقوى الظلام (يقصد الإسلام) ، وكتب يقول : « إننى أكتب هذه السطور لأنّبه ، فربما يحاول البعض (؟) استدراج جهاز الرقابة لممارسة أعمال ليست من اختصاصها ، أو يحاول أن يستعديها على الهيئة العامة للكتاب التى تخوض فى هذه الأيام

معركة ضد قوى الظلام التى تريد العودة بالبلاد إلى الوراء، والتى تحارب كل فكر مستنير، وكل رأى حرّ» (الأخبار، ١/٢٧/ ١٩٩٤، ص ٣).

ما حدث بعد ذلك، أن رئيس هيئة الكتاب صرّح فى اليوم ذاته ردًّا على سؤال حول ما نسب إلى الرقابة الإدارية بقوله: «الرقابة الإدارية جهة تفتيش عما يجرى داخل مؤسسات الدولة، وليست جهة مصادرة، وكانت تقوم بعمل روتينى داخل الهيئة» (الجمهورية ١٩٩٤/١/٢٧).

ترى هل تعرف حمرة الخجل وجوه مثقفى العار؟ كلّا.. فقد تعوّدوا على الكذب والتزوير والتلفيق طالما كان ذلك فى سبيل مصالحهم ومصالح من يعملون لحسابهم.. ولا يعينهم بعدئذ دين ولا أخلاق ولا قيم.. المهّم أن يؤدّوا دورهم بمهارة وإتقان، حتى لو اكتشف الناس مخاتلتهم وزيف كلامهم.

لقد ظل الأزهر شامخاً على مدى ألف عام أو يزيد، وسيظلّ بإذن الله منارة إسلامية حقيقية تواجه ظلام الملحدين وخدّام الطغيان وجنود الشيطان. لقد حاول «محمد على» فى مطلع القرن التاسع عشر أن يعصف بالأزهر ويقتلع جذوره، بعد أن اكتشف قدرته على تهديد طاغيةٍ مثله، وكرّر «جمال

عبد الناصر » المحاولة ذاتها في منتصف القرن العشرين بقسوة أكثر وشراسة أشدّ ، ولكن الأزهر لا يموت ولا يذهب بالرغم مما يعانيه من قهر وحصار ، لسبب بسيط ، هو : أنه يحمل كلمة الله إلى عباد الله ، تلك الكلمة التى هى أساس ثقافة أمتنا ، وأساس حضارتها ، وأساس مصيرها ومستقبلها ، لقد بقى الأزهر وذهب « محمد على » و « جمال عبد الناصر » ، وسيعود للأزهر بإذن الله ، بهاؤه ، ونقاؤه ، وقوته ، وعزّته ، ومجده ، وعظمته بالرغم من أنف مثقفى العار وسادتهم . واسلمى يا مصر .



فقه الحريّة .. والغش الثقافى!

غريبٌ أمر كُتَّابٍ في هذا الزمان!! يتركون القضايا الحيوية والأساسية التى تؤرق الأمة، وتهدّد كيانها، وتبدد أحلامها، ويفرغون لتحطيم ما تبقّى من قيمها المضيئة وأخلاقها المثمرة ومعتقداتها الإيجابية. لماذا؟ الله وحده أعلم.

ولا أظنُّ ما نُثير حول بعض الكتابات الرخيصة والرديئة، ثم الدفاع عنها بشراسةٍ وتزييفٍ وتزويرٍ، إلا دليلَ خرابٍ قادم، يُؤْذِنُ بزوال ما تبقّى لدينا من عناصر التماسك والصمود فى مواجهة محنةٍ حضاريةٍ ضارية.

ولا ريب أن قضيّة الحرية فى التعبير والممارسة؛ على المستوى الشخصى والصعيد الجماعى، تمثّل هدفاً أو غايةً يسعى إليها الناس جميعاً، وبخاصة الأدباء والمثقفين وحملة الأقلام، وإذا تخلى الكاتب أو المثقف أو الأديب عن هذه الغاية أو ذلك الهدف؛ فإنه يخون الرسالة التى يحملها وينقلها إلى المجتمع مبشراً ونذيراً، فى الإطار الفنى الذى يجيده ويتفوق فيه.

وإذا كان ذلك بَدهِياً ومفروغاً منه، فإننا نودُّ أن نسأل البعض: هل الدفاع عن حرِّية المجتمع أولى بالجهد والوقت، أم

الدفاع عن حرية سبّ الذات الإلهية؟ هل قضايا الأمة وأحزانها وآلامها أولى بالتعبير والتقديم، أم الدعوة إلى الحرية الجنسية الفجّة والترويج للممارسات الشاذة الرخيصة؟

إننا لا نفرض على أحدٍ تصوّراً بعينه، ولا منهجاً بذاته، وإلا كنّا ضد الحرية وفقهها، ولكنّنا فى الوقت ذاته لا نريد من أحدٍ يعتدى على حرياتنا ومشاعرنا أو يؤذى بصائرنا وحواسنا. وتلك أبسط الصيغ لفقه الحرية، وما عدا ذلك، فإنه يعدّ من قبيل التطرّف السلوكى والإرهاب الفكرى والغش الثقافى.

ولا شك أن الأدب العربى يمثّل - على مدى تاريخه الطويل - وظيفة اجتماعية لا يمكن - أيًّا كانت الاستثناءات - أن نتجاهلها أو نغفل عنها، وهذه الوظيفة ليست من قبيل الوجاهة أو الديكور، ولكنها تدخل فى صلب الحركة الاجتماعية ونسيجها، منذ كان الشاعر لسان القبيلة أو وزير إعلامها، حتى يومنا الذى صار فيه الأديب بعامة والشاعر بخاصة رائدَ يقظة، وباعث نهضة، وقائد ثورة، فى إطار جمالى يتناغم من مزاج الأمة وأحاسيسها وتقاليدها.

فإذا جاء اليوم من يجرّد الأدب من وظيفته، أو يعفيه من مهمته تحت دعاوى الإبداع والحرية، فلا بد أن نتصدى له، ونقف أمامه، ونناقشه ما يقول، لأن المسألة لا تتعلق بشخص ما،

أو هيئة ما ، ولكنها ترتبط بمصير أمة وحياتها .

لا شأن لنا بالعبث ، ولا علاقة لنا بالشكلانية الغبيّة ، فهما من الترف الذى لا تحتمله أمّة تحاول أن تلملم شتاتها ، وتتماسك ، لتنهض مرة أخرى فى مواجهة المحن والآلام والتقهقر . فضلاً عن أن نسبة الأميّين لا تجيز مثل هذا التزيّد الذى يحوّل الأدب إلى « لعبة سرّية » لا يمارسها إلا نفرٌ قليل ، لا يؤثرون فى مزاج المجتمع العام ، وإن كانوا بالطبع يعكّرونه ويكدّرونه !

والسؤال الآن : هل يجوز أن نتسامح مع الكتابات التى جعلت همها الأول والأساسى هو التجديف فى ذات الله ، ووصف الاتصال الجنسى الفجّ دون مبرّر فنى ؟

وهل إذا تصدّينا لهذه الكتابات نكون « محاكم تفتيش » جديدة فى القرن العشرين ؟ ثم نُوصم بالتخلّف والرجعية والردّة والظلامية .. إلى آخر القاموس البذئ الذى يصكّه البعض ضد مخالفيهم والمتمرّدين على فكرهم الإرهابى السليط ؟

إن ذات الله فى الدين الإسلامى مصونة مقدسة ، والأغلبية الساحقة فى الوطن العربى من المسلمين وغيرهم لا تجيزُ شرائعهم لأحدٍ أن ينالها بسوء ، فكيف يتجرأ البعض على النيل من الذات الإلهية ، ولا ينتظر من تلك الأغلبية ردًّا ولا صدًّا ؟

من حق الجماهير التى تؤمن بالله أن تحتج وتعترض ، دون أن يكون ذلك « محكمة تفتيش » أو « وأداً لحرّية الإبداع » المزعوم. فهؤلاء المتجرّئون على الله ، لا يستطيعون مثلاً أن ينالوا من « بوذا » أو من « رام » إله عبّاد البقر ، فضلاً عن أنهم لا يستطيعون ولا يقدرون أن يخدشوا إحساس طاغية من الطغاة يخشون بأسه أو يطمعون فى خيره ، فكيف لهم بالجرأة على الله ؟

وما تأويل ذلك الافتئات على الله إلّا محاولة ساذجة لا تقنع من يفكّون الخط فضلاً عن غيرهم من المثقفين ، لأن ما يقوله أصحاب الكتابات الآثمة والسافلة صريح فى جرائته وافتئاته وتجديفه !

أما مَوْضُوع الجنس ، فقد عالجه القرآن الكريم بوضوح ، وتحدثت عنه كتب الفقه الإسلامى بصراحة سبقت المدارس الغربية الحديثة ، ولكن فى الإطار الذى تفرضه الآداب العامة والذوق العام ، وما تفرضه الفطرة السوّية التى تأبى القبح والدمامة والشناعة . دعونا نقل مثلاً : هل يقبل أحد أن يرى شخصاً يقضى حاجته فى الطريق العام ؟ والإجابة بالنفى طبعاً ، لأن الأداب العامة تقتضى الحرص على مشاعر المجتمع وأحاسيسه ، والخروج عليها يفرض نوعاً من العقاب يرتّبه القانون .

الكتابات التى نشرت مؤخراً فى مجلات الدولة الرسمية ليست أدباً ولا علاقة لها بالأدب ، وإنما هى خروج عليه ، وجرح

للذوق العام، وللآداب العامة، والتغطية عليها ليست فى ساحة النقد الأدبى المتهافت، أو الدفاع الصحفى الغشوم، بل فى ساحة القضاء لأنها مخالفة صريحة للآداب العام، وتُصَنَّفُ تحت «فعل فاضح فى الطريق العام»!

ماذا يعنى - أيّها السادة - أن نرى كلاماً غير فنّى يصف اتصال رجل بامرأةٍ بطريقة فجّة ووقحة؟ ثم ما هى الإضافة التى يضيفها شخص يضع ساق امرأة يضاجعها على كتفيه؟ ثم ما هو الإبداع فى أن يصف شخص ما عضو الذكورة بأنه يشبه جندياً يلبس خوذة؟

لقد كان أجدادنا يقولون شعراً ونثراً، ووصفوا الجنس أوصافاً عديدة لا حصر لها، ولكنهم فى كل الأحوال كانوا يتغيّون غاية، ويهدفون إلى هدف، أمّا خلفهم الطالح، فقد جعل الجنس الفج والشاذ غاية في حد ذاته، ثم يتيه بنشر وقاحته على صفحات رسمية تملكها الأمّة وتنفق عليها! فأىّ حرية تلك، وأى إبداع هذا؟

إن هذه اللوثة التى أصابت بعض الأشخاص، ينبغى أن تتوقف، كما ينبغى أن يتوقف الدفاع المتهافت عن أصحابها، لأن أصحاب هذا النوع غير مؤهلين للكلام عن الحرية والإبداع، لسبب بسيط جداً، وهو أنهم عملوا فى خدمة أعداء الحرية

وأعداء الإبداع معاً ، ثم إنهم صاروا أغنياء جداً - بعد فقرٍ مدقع جداً - نتيجة لخدمة الطواغيت الذين أجرموا فى حق الله والبلاد والعباد ، وللأسف فلم تكن لديهم فضيلة الوفاء لهؤلاء الطواغيت حين تغيّرت بهم الأحوال وتبدّلت بهم المواقع والحظوظ .

فالشخص الذى يتشدق بالحديث عن الحرية والإبداع ، وهو يخدم الطاغية البعثى « صدام حسين » مثلاً ، لا يمكن أن نصدق حديثه أو كلامه مهما برع فى لفّ حديثه بأحدث الأساليب وألوان البيان ، والشخص الذى يتقلب فى الولاء بين النفط التقدمى والنفط الرجعى مثلاً ، لن يقنعنا - ولو لمرةٍ واحدة - أنه صادق فى دفاعه عن الحرّية والإبداع ، وبخاصة حين يدافع عن التجديف فى ذات الله ، وتصوير الجنس بصورة فجّة ومثيرة للاشمئزاز .

والشخص الذى يعمل صبيًّا لامرأة نفطيةٍ قبيحة الفكر مثلاً ، لا نستطيع أن نفقه حديثه أو صراخه لإنقاذ الحرية والإبداع ، فى الوقت الذى يقنّن فيه الاستبداد والاتجاه الواحد والعداء الصارخ لمنهج الحرية فى جوهره العريض .

إن الدفاع عن الحرية والإبداع ، يقضى عدم التناقض بين التصوّر والتطبيق ، كما يقضى أن تكون السماحة حقيقة واقعة فى الممارسات اليومية والفكرية تجاه « الآخر » .. ولكن الإصرار على

«التناقض» ومصادرة «الآخر» مثل نكسة كبيرة فى مجال الفكر والإبداع جميعاً، بل يحول المسألة إلى حالة «غش» ثقافى، يجب ضبطها، وتقديم أصحابها إلى مجلس تأديب يقضى على الأقل بحرمانهم من الوصاية على فكرنا وأدبنا وثقافتنا.

إنّ العصر لم يعدّ يسمحُ باستمرار الرأى الواحد والتصوّر الواحد، كذلك فإن من العار على أمّة مثل أمّتنا ألّا تجد من بعض كتّابها وأشباههم غير هجاءِ دينها وانتهاك حُرُمَاتها والسخرية من أخلاقها، وهو ما لا نجد له مثيلاً فى أمة أخرى على وجه الأرض، وأظن أن الأمة تحمل ذاكرة قوّية، بالرغم مما تبدو عليه أحياناً من ضعف وترهّل، وهذه الذاكرة تجعلها قادرة على الفرْز والتمييز، وأيضاً الدفاع عن هويّتها وتأديب المستهزئين بها.

قد يتصورُالبعض أنّ المُغَالَبَةَ بالصَّوْتِ العالى، وتسخير الأتباع والأشياع هنا وهناك؛ للتشهير بالمخالفين، قد يحقّق مكاسب على المدى الطويل، ويتيح إزاحة الحقائق الراسخة، ولكنٍ ذلك وَهْمٌ، لم يكن له فى يوم من الأيام البعيدة أو القريبة، أىّ ظلٌ فى الواقع.

إنّ الحرّية أكبر من الإلحاد والانحلال، ومجالها واضح وواسع، ومن يتعرف عليها سيعرف طريقه إلى الإبداع الحقيقى، والفن الحقيقى.. واسلمى يا مصر.

الفكر الأسود .. والفتنة الثقافية !!

التيار الفكرى الذى يسيطر على الساحة الثقافية الآن ، مدعوماً من السلطة ، هو تيار الفكر الأسود ، الذى يضم خليطاً من اليساريّين والبعثيّين والطائفيّين المتعصّبين والعلمانيّين المؤمنين بالثقافة الغربية ، خيرها وشرها ، ومنهجها السلوكى والتطبيقى بإيجابياته وسلبياته .

وتتفق فصائل « تيار الفكر الأسود » على نقطة واحدة تجمعها ، هى مواجهة الإسلام ، والمشاركة النشطة فى حرب اقتلاعه من النفوس والصدور ، وتشويه صورته بكل ما هو متاح من وسائل وأساليب ، والتحالف مع كل سلطة ترى فى الإسلام خطراً على وجودها أو حركتها .. ومن ثم ، لم يكن غريباً أن تسقط دعاوى هذا التيار عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ، وثبت للناس فى كل مكان داخل العالم العربى وخارجه أن دعوى الفكر الأسود ، مجرد خدعة رخيصة ومكشوفة للدخول إلى ساحة المواجهة مع الإسلام والتكسب بهذه المواجهة .

الفكر الأسود فى الفترة الأخيرة استطاع أن يجعل الإسلام رديفاً للإرهاب والظلام عبر وسائل الإعلام التى تملكها الحكومات

« الإسلامية » وصار من يصلى الصلوات الخمس إرهابياً وظلامياً ، ومن ترتدى الحجاب الشرعى إرهابية وظلامية ، ومن يقرأ القرآن الكريم إرهابياً وظلامياً ، ومن يرفض الربا وشرب الخمر والرقص الشرقى والرقص الجماعى واختلاط النساء والرجال إرهابياً وظلامياً ، ومن ينادى بتدريس التاريخ الإسلامى والدين الإسلامى إرهابياً وظلامياً ، ومن يدعو للوحدة الإسلامية اقتصادياً وثقافياً وسياسياً إرهابياً وظلامياً ، ومن ينادى إلى مساندة المسلمين الذين يبيدهم الصليبيون المتطرفون الإرهابيون فى البوسنة والهرسك أو الهند أو بورما أو سيريلانكا أو الفلبين إرهابياً ومتطرفاً .. صار كل من ينتسب إلى الإسلام دموياً متخلفاً يجب القضاء عليه بمفهوم تيار الفكر الأسود وتصورات أصحابه ، والذى يرضيهم هو أن يتخلى المسلمون عن الإسلام ويتبعوا غيرهم ديناً وفكراً ، ومنهجاً وسلوكاً .. وعندئذ يصح أن يقال عنهم إنهم مستنيرون .. وهكذا صك « الفكر الأسود » مصطلح « التنوير » أو « الاستنارة » وبدأ الناس يتساءلون : هل أنت مستنير أم ظلامى ؟ والقصد طبعاً ، الاستنارة هى التحلل من الدين والخروج عليه وعدم التقيد بمقتضياته ، كما فعل الأوربيون ضد « الكاثوليكية » عندما ثاروا على الكنيسة والإكليروس ورجال الدين وتدخلهم فى شئون الدولة والدنيا . والظلامية تعنى التمسك بالدين والالتزام بتعاليمه والسير

على نهجه، وتطبيقه ديناً ودولة، ودنيا وآخرة، وشريعة وطريقة، وبذا وضع الفكر الأسود الإسلام مساوياً للكاثوليكية، وأشار إليه أحدهم بأنه الثقافة السوداء (؟) الراقدة فى اللاوعى من عصور الانحطاط.

ولم يكتف أصحاب «التنوير» بتزوير الحقيقة المرتبطة بمفهوم الإسلام وتصوراته، بل خلطوا عمداً مع سبق الإصرار والترصد بين رجال النهضة الحديثة الذين قاموا بإيقاظ الأمة على أسس من الوعى الإسلامى، وبين أولئك الذين ركبوا الموجة أو دفعت بهم الجهات المعادية للإسلام إلى الصفوف الأمامية، أو الذين كانوا يعملون لحساب السلطات المستبدة، أو الذين نبتوا فى بيوت الخيانة والعمالة للمستعمر الصليبى المتوحش!

إنهم يسمون النهضة الحديثة بالنهضة العربية، وقد كانت فى حقيقة الأمر - كما يسجل التاريخ لا كما يسجل المأجورون والمضللون - نهضة إسلامية، صنعها رجال الإسلام فى شتى المجالات منذ قام «عمر مكرم» - من علماء الإسلام - بعزل خورشيد باشا وتولية «محمد على» وإلباسه الكرك، وقام علماء الأزهر وطلابه بقيادة الشعب المسلم لمواجهة الطاغية الدموى الصليبى «نابليون بونابرت» وهو يذبح المسلمين ويغتصبهم ويربط خيوله فى الأزهر الشريف، وكان «رفاعة الطهطاوى» - مع

التحفظ على بعض آرائه – إماماً يصلى بالبعثة المصرية فى باريس ، وكان جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعلى مبارك ، وعبد الله نديم ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد الله فكرى ، والكواكبى ، والعقاد ، يصدرون فى معظم ما قالوه عن تصور إسلامى ، حتى أولئك الذين كانوا ينتمون إلى النصرانية من أمثال أحمد فارس الشدياق (قبل إسلامه) ، كانت ثقافتهم الإسلامية من وراء حركتهم فى إيقاظ الأمة ونهضتها ، ولا يمكن بالطبع أن نقبل « بمركستهم » أو « علمنتهم » كما يذهب أصحاب « الفكر الأسود » .

كان هؤلاء الرواد يسعون إلى نهضة الأمة على أساس إسلامى ، لا على أساس ماركسى أو تغريبى ، وقد ضحوا فى سبيل ذلك بأعمارهم وثرواتهم ومراكزهم ، وقبل ذلك حرياتهم الشخصية ، وما زال بيت البارودى يرن فى أذنى عندما فسر سبب محنته وهو فى منفاه :

فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى

ذنبٌ أدانُ به ظلماً وأغتربُ ؟

ودخل العقاد السجن ، بسبب دفاعه عن حرية الأمة وحقها فى التعبير عن إرادتها ، وظل تسعة أشهر يعانى من محنة حقيقية ، خرج بعدها مرفوع الرأس ، لم يتملق بقلمه حكومة أو سلطاناً ،

ولم يفعل ما فعله (زعماء التنوير الخونة) حين نافقوا السلطة الغشوم وبخاصة في عهد الطاغية الأرحل (جمال عبد الناصر)، ولم يعمل جاسوساً على غيره من الكتّاب والمثقفين كما فعل (زعماء التنوير المزيفون) لحساب جهات الأمن (اقرأ مثلاً وشاية «سلامة موسى» بالعقاد لوكيل وزارة الداخلية التي نشرتها المصور في عددين (أبريل ١٩٣٣) وعرض خدماته على وزارة الداخلية في حكومة «محمد محمود» ليتولى إحداث انشقاق في الأقباط الملتفين حول الوفد ليقودهم إلى تأييد المعاهدة مع بريطانيا مساندة للحكومة المصرية (راجع، محمد جلال كشك، الغزو الفكرى، ط ٤، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ١٣٢ وما بعدها).

إن إقحام أعداء النهضة الإسلامية وخونة الأمة في صفوف رواد النهضة، أول خطوات الفكر الأسود في تزوير التاريخ الحديث، ويرتبط بذلك في الوقت نفسه إسقاط الرواد المؤثرين على المستوى الشعبي الجماهيري من أمثال مصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وابن باديس، والبشير الإبراهيمي، وعمر المختار، وعلال الفاسي، وحسن البنا، وسيد قطب، وعمر التلمساني، والشيخ خطاب وغيرهم مما يضيق المقام عن ذكرهم.

إن الإصرار على تلميع الخونة وأعداء الإسلام يعني فيما يعني، أن هناك نية قائمة ومستمرة لتحطيم هوية الأمة، وإغراق

شعوبها فى فيض من التيه والحيرة والضياع لحساب الشيطان الصليبى والشيطان الصهيونى معاً ، ولقد عانت الأمة من الضربات المتلاحقة ، ضربة وراء أخرى بوساطة هؤلاء الخونة المأجورين الذين ما تركوا فى الإسلام قيمة إلا وانتقصوها وأزروا بها ، وحملوا عليها ، وجعلوا الأجيال الجديدة تعيش محنة غير مسبوقة ، ولم يقتصر الأمر على الدين والقرآن ، بل تناولوا اللغة والتاريخ والحضارة الإسلامية ، فلم يذكروا لها فضيلة ، ولم يقصّدوا فى تلفيق التهم والمعايب والنقائض . إنهم يريدون سلخ الأمة عن ذاتها وهويتها باختصار شديد !

لم يكن غريباً مثلاً أن تقوم هيئة الكتاب المصرية بقيادة « الفكر الأسود » والترويج له ، وطرح قضية الأمة فى سعيها من أجل النهضة طرحاً إجرامياً معادياً لمشاعر الناس وأشواقهم ، فقد سلمت قياد مجلاتها ودورياتها لأشد اليساريين مغالاة فى العداء للإسلام والهوية الإسلامية ، وفهم التنوير فهماً غريباً يعادى الدين والمتدينين (أبرز رؤساء التحرير بعثى وناصرى وطائفى) ، واستغلت حوادث العنف التى جرت فى مصر مؤخراً لتقوم بتجميع تيار « الفكر الأسود » لمواجهة الإسلام الذى تسميه « الإرهاب والتطرف » من خلال الدعوة إلى ما يسمى « مؤتمر المثقفين » ونشر سلسلة تحمل عنوان « التنوير فى مواجهة

الإرهاب » أى التغريب فى مواجهة الإسلام ، أبرز كتبها « مستقبل الثقافة فى مصر » لطه حسين وهو الذى يقول فيه بضرورة أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها ، والإسلام وأصول الحكم « لعلى عبد الرازق » الذى يفصل فيه بين الدين والدنيا ، ويرى أن الخلافة اختراع لا صلة لها بالدين ، وأعلن قبيل وفاته توبته عن الآراء التى تضمنها كتابه ، وكتب سلامة موسى التى تزرى بالدين واللغة تلميحاً وتصريحاً ، ثم كتب أخرى تهجو الصحوة الإسلامية ، وتردها إلى تأثير « النفط » ، وترى « العلمانية » الغربية مع الدين أو لا تتعارض مع الدين !! بالإضافة إلى كتب تضم مقالات وموضوعات تتفق جميعها على استئصال الإسلام - تحت شعار محاربة الإرهاب - وتجفيف منابعه فى كافة المجالات والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية !

وقد بلغ الشطط بتيار « الفكر الأسود » أن يلبس عمامة الفتوى الإسلامية ، ويطالب بالتعدد وفتح باب الاجتهاد ثم يدلى بآرائه الاجتهادية على غير هدى وعلى غير علم ، ودون حد أدنى من الفقه !

ولنا أن نتصور مثلاً كيف يكون رد الفعل لدى الناس عندما يسمعون أو يقرءون أن واحداً من تيار « الفكر الأسود » لبس عمامة الفتوى بينما لا يفيق من الخمر إلا نادراً ، ويفاخر بمغامراته

النسائية ، ولا يصوم يوماً فى رمضان ، ولا يركع ركعة واحدة فى مسجد أو بيت ، ويبيع قلمه لكل من يدفع ؟ هل يصدق الناس فعلاً أن هذا الشخص حريص على الإسلام ، وفَاقِهٌ له ، ومُلمٌ بعلومه ، وهو الذى عاش يدعو لماركس أو ميشيل عفلق أو الكتاب الأخضر ؟

إن كتابات القوم لا تحمل ذرة من تعاطف مع الإسلام ، لأنها كتابات كره وعدوان وسخرية .. فكيف يتأتى لهم الاجتهاد ؟ بل كيف يتأتى لهم أن يعلموا أساساً إن كان باب الاجتهاد مقفولاً أو مفتوحاً ؟

إن أحداً لم يصدر فرماناً بقفل باب الاجتهاد فالاجتهاد قائم ما قام العلم الشرعى ، ولا يستطيع أحد أن يوقفه مهما كان وضعه أو رسمه ، وكل ما هنالك أن الأمة من خلال علماء الأصول أو « الأصوليين » - وهم مفخرتها وتاجها الذين يملكون من العلم ما لا يملكه غيرهم - تتصدى للمستجدات فى الحياة والواقع من خلال القياس والمصالح المرسلة وغيرها ، لتضع للناس الطريقة المثلى والأفضل والأصوب وفقاً للتشريع ، وما تخلف الاجتهاد يوماً عن التعامل مع الظواهر الجديدة والطارئة وبخاصة فى العصر الحديث بدءاً من ظهور المطبعة التى كان يحرمها الأتراك حتى الصعود إلى القمر على أيامنا . فلماذا يتهمون الإسلام ؟ ويتهمون الاجتهاد ؟

لقد كان من أطرف ما اخترعه الشيوعيون العرب فى حديثهم عن الاجتهاد ، هو جراءتهم واقتراحهم بنقل صلاة الجمعة إلى يوم الأحد بالنسبة للمسلمين فى أوربا وأمريكا ؟ أرأيتم كيف يريدون أن تصبح الجمعة كاثوليكية فى أواخر القرن العشرين تحت مسمى الاجتهاد ؟ ألا يدل ذلك على أن تيار « الفكر الأسود » يصنع « فتنة ثقافية » خطيرة بجهله وادعائه وجراءاته ؟ وهل يستطيع أن يناقش مثلاً نقل صلوات النصارى من يوم الأحد إلى يوم الجمعة فى البلاد العربية ؟ أم إن المقصود هو الإسلام اقتلاعاً وتشويهاً وتخريباً وتحريضاً ؟

إن تيار « الفكر الأسود » عندما يرتدى العمامة الإسلامية ليقتلع الإسلام ، إنما يرتكب جريمة خطيرة ، تدل على خيانته وعمالته ، وبخاصة بعد أن تخلى مؤقتاً عن مقولاته الماركسية والتغريبية التى عاش ويعيش لها ، وفى الوقت نفسه فإنه يعطى مبرراً لمن تسميهم أجهزة الإعلام بالمتطرفين لكى يصدروا أحكامهم وفتاواهم سواء كانت صحيحة أو خاطئة ، على علم أو على ضلال ، وتكون النتيجة فى كل الأحوال وبالاً على الأمة وشعوبها .

ومن الغريب أن يصر تيار « الفكر الأسود » على وصم علماء الدين فى الأزهر الشريف « بالمؤسسة الدينية » تشبيهاً لها بمؤسسات

الكاثوليكية والإرثوذكسية والبروتستانتية ثم يركز على هجائها ، واتهامها بالتقصير بل بتشجيع الإرهاب ، فماذا يعنى ذلك ؟ إنه يعنى تأكيداً لجبن هذا التيار عن هجاء الكنيسة النصرانية أيًا كان مذهبها ، فضلاً عن المعبد اليهودى أيًا كان مذهبه ! ويعنى أيضاً أن اقتلاع الإسلام هدف رئيسى لهذا التيار ، وأن إضعاف الأزهر والنيل من علمائه تمهيد صريح لإلغاء دوره فى التثقيف و «التنوير» الحقيقى ، وإتاحة الفرصة بعدئذ للجهلاء والأدعياء كى يفتوا بغير علم ، وهنا تقع الواقعة ، وتشتعل النار بين السلطة والناس ويبتهج « الفكر الأسود » وأنصاره ، بعد أن تخلو لهم الدنيا من « الإسلام » وعلمائه ، ألم أقل لكم إن « تيار الفكر الأسود » يقوم بفتنة ثقافية غير مسبوقة تحت مسمى « التنوير » ؟

إن « الفكر الأسود » وهو يستعرض قوته اليوم ، بأحوال المسلمين ، وفى صحف المسلمين ومجلاتهم وكتبهم ، لا يخدم السلطة التى يعمل لحسابها ، بقدر ما يصب النار على الزيت ، وإشعال الصراع بين السلطة والناس ، مما ينذر بخطر لا يدرى أحد متى ينتهى أو يتوقف . فهل من عاقل فى السلطة أو خارجها يوقف عبث هذا التيار وتخريبه ؟

* * *

مأساة المثقفين!

مأساة المثقفين هى مأساة الأمة، وأحلامها المجهضة، وكرامتها المستباحة، وحريتها السليبة، وتزييف الوعى، وتسطيح الفكر، وسيادة النفاق، وتبادل المصالح والمنافع على حساب القيم الشريفة والمثل الرفيعة والأخلاق النبيلة.

المثقفون بصورة ما نسخة أخرى من المجتمع، وهى نسخة مصغرة لما يجرى بين فئات المجتمع وطبقاته ونماذجه، لذا لا نستطيع أن نضعهم جميعاً فى سلّة واحدة ونصدر عليهم حكماً واحداً، أو بالإشارة إليهم من خلال ما يسمى بـ «أزمة المثقفين». فالأزمة تفترض مشكلة عارضة يمكن حلّها فى وقت قصير ثم تنتهى آثارها تماما.. ولكن الأمر فى مجتمعنا الإسلامى أكبر من ذلك، إنه مأساة بكل ما يحمله اللفظ من دلالات تعنى استمرار الحزن والخسارة، والأسى والكارثة، والأسف والمحنة، والألم والداء... إلخ. فالمثقفون الذين يظهرون على سطح المجتمع ليسوا كل مثقفى الأمة، وإن درج الناس على عدّهم الواجهة الثقافية التى يحكمون عليها ويقيسون بها ويستنتجون منها، المثقفون

دائرة واسعة تتخلّل نسيج المجتمع ، وتتفاوت مستوياتها واتجاهاتها وقيمتها ، وما يظهر منها على السطح هو الذى يسمح به الواقع السياسى القائم .

يمكن القول إذاً إن المثقفين فريقان ، فريق على السطح تحوطه الأضواء وتلمع به شاشات التلفزة وتستنطقه الإذاعات وترسم صورته الصحف والمجلات ، أما أخباره وآراءه فهى أمام الأعين وفى قلب الآذان باستمرار . الفريق الثانى تحت السطح يلفّه الصمت ويطويه النسيان - أو التجاهل بمعنى أدق - وقد يناله أحياناً أو دائماً الكثير من التشهير والتجريح ، بل يناله عندما يكشر الاستبداد عن أنيابه الدامية الكثير من الأذى والظلم والاضطهاد والقهر . ولكنه أصيل ، لأن مثقفيه يملكون الوعى الإنسانى الصحيح والسليم ؛ الذى يدرك طبيعة القيم التى تحتاجها الأمة ، وتشكّل الأساس الذى تبنى عليه نهضتها وتقدّمها وعزّتها ، ثم إنهم يصرّون على موقفهم بالرغم من كل عوامل الإحباط والترهيب ، التى يعانون بسببها الحرمان الإعلامى والدعائى ، والحصار القمعى الذى يحول دون وصول أصواتهم وأفكارهم إلى الجمهور .

إن المثقفين الأصلاء فى حقيقة الأمر أقوى تأثيراً وفاعلية ، لأن ما يقولونه يتمتع بالصدق والإخلاص ، لذا يتهيأ الجمهور لاستقباله

بوعى كامل وتفتح تام، بل إن الحصار القمعى يزيدهم شعبية، ويحفر لهم مكاناً عميقاً فى نفوس الناس، وإن كان يحرمهم التواصل الفكرى مع الجمهور. إن مثقفى الأصالة وهم يرتكزون على التصوّر الإسلامى الناضج؛ يعبّرون عن روح الأمة وأمانيها فى التحرر من الاستبداد والكبت والقيود، مع السعى نحو البناء والتعمير والإبداع والرخاء، وقبل ذلك إقامة العدل والشورى والحوار والاستقامة والنزاهة والعفة.

أما مثقفو السلطة، سبب المأساة وأسّ البلاء، فهم فى الأغلب الأعم من أنصار العلمانية واليسار والطائفية، وفيهم عدد كبير من أصحاب المصالح والمنافع، وهم بصفة عامة مثقفو التبعية والذيلية الذين يبيعون تراث أمتهم وهويتها لصالح الذوبان فى أعدائها وخصومها، وهم يؤلون السلطة المستبدة فى كل تصرفاتها وأفعالها، يسوّغونها ويقدمون الأدلة والبراهين على صوابِ ما تفعله، ولو كان شرًّا مستطيراً، ينذر بدمار البلاد وخراب الديار وسحق العباد.

إنهم للأسف الشديدة، يتخلون - أو قد تخلَّوْا بالفعل - عن كل القيم الإنسانية المضيئة لحساب الاستبداد والكبت والفساد، ويقلبون الحقائق، بل يزوّرون التاريخ. وهم على استعداد للتحوّل من النقيض إلى النقيض، ومن مدح حاكم في حياته إلى هجائه

بعد رحيله ، بل إنهم على استعداد لإضفاء صفات الألوهية - أستغفر الله - على شخص الحاكم ، طالما كان يمنحهم ويعطيهم ، ولهم فى التاريخ أسوة سيئة وقدوة منحطّة يمثّلها بعض المرتزقة الذين باعوا ضمائرهم فى سبيل مكاسب قليلة ، وباعوا شعوبهم من أجل عرض زائل لا قيمة له ، وما أبيات « ابن هانئ » الأندلسى التى قالها فى « المعز لدين الله » الفاطمى ، الخليفة المستبد بعيدة عن الأذهان ، ومنها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبيّ محمّد   وكأنما أنصارك الأنصار

هذا النموذج الحقير لتأليه الحاكم ، أو تشبيهه بالرسول الأعظم ﷺ موجود الآن بغزارة بين مثقفى السلطة ، الذين هم مثقفوا التبعية بالضرورة ، وإن كانوا اليوم لا يقولون الشعر إلا لماماً ، فإنهم يستخدمون « النثر » عبر الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزة والندوات والمؤتمرات ، دون أن يستشعروا أدنى خجل أو حياء ، حتى لو كان صوت المظلومين وأنين المقهورين يصمى الآذان ويفرى القلوب ويحرق الدماء !

إن تأليه الحاكم ، حتى لو كان غير مسلم أو كان معادياً للأمة ، أو كان محتلًّا لأرضها ، أمر غير مستغرب على أولئك المثقفين الفاسدين الذين يتصدّرون الواجهة الثقافية ويساندون

الاستبداد والطغيان ، ويستعين بهم المستبدون والطغاة ، وأنا زعيم لك بأنه لن يكون مستغرباً ذات يوم أن يقوم هؤلاء مثلاً بمدح الإرهابى الدموى «بنيامين نتنياهو » إذا اتيحت له - لا قدر الله - فرصة حكم بلد إسلامى أو عربى ، إننى واثق أنهم لن يتورعوا عن إضفاء الألوهية عليه ، وإسباغ نعوت الوطنية والتحضّر على سلوكه الإجرامى الشهير !

إن التاريخ القريب يحمل إلينا صوراً بشعة لأولئك الذين باعوا ضمائرهم وشعوبهم ، وتقدمهم السلطة المستبدة على أنهم مثقفى الزمان ومستنيرى العصر والأوان ، ولعل الانقلاب الذى جرى فى تحوّلهم من هجاء اليهود الذين يحتلّون أرض فلسطين ، وفضح أساليبهم الإرهابية وممارساتهم الإجرامية - إلى الحديث عنهم حديث ودّ ورقّة وإخاء ، ثم الدعوة إلى الصلح معهم والاستفادة من خبراتهم والاندماج من خلالهم فيما يسمى السوق شرق أوسطية ،والدعوة إلى الاستسلام لإرادتهم ، والصمت عن جرائمهم شبه اليومية فى حقّ الفلسطينيين واللبنانيين ، والجرائم القديمة فى حق المصريين والأردنيين والسوريين - يؤكد لنا فداحة العار الذى تستشعره الأمة وتعانيه ؛ جرّاء سلوك هذا النفر من المثقفين الذين دُفع بهم ليكون واجهة الثقافة فى زماننا .

ولا يقولنّ قائل : إن هذه تقلّبات سياسية تفرض مثل هذه

التغيّرات الفكريّة ، بحكم الضعف القومى والتمزق العربى والتخاذل الإسلامى ، فهناك فرق بين ما يفعله السياسى الذى قد يرى الأمور بحسابات معينة لا يراها غيره من الناس ، أو يتحرك بطريقة تيكتيكية تهدف إلى تحقيق أغراض مرحلية ، وما يفعله المثقف الذى ينبغى أن يمثّل ضمير الأمة وروحها وتاريخها ومستقبلها ، إنه الحارس على القيم والمثل والهويّة ، وهو الداعية إلى المقاومة والصمود وتجاوز المحن واقتحام العقبات ، وهو الذى يبعث الأمة من رقدتها ويوقظها من غفوتها وينفخ فيها روح الأمل والاستمرار والظفر .

ومن ثمّ ، فإن التقلّبات السياسية لا يستلزمها بالضرورة تقلّبات ثقافية ، إلا بقدر ما تكون الأخيرة تعبيراً عن إرادة الأمة وهويتها ، أما التقلّبات الانتهازية فهى تمثّل جرحاً وعاراً وخسّة .

إن مثقفى التبعية حين يوالون السلطة التى تدوس على كرامة الأمة ، وتسلبها حريتها وإرادتها ، إنما يرتكبون جريمة لا تغتفر ، وخاصة حين يقوم خطابهم الثقافى على تكريس مشيئة هذه السلطة وإرادتها ، والعدوان على قيم المجتمع ومثله وتصوّراته ، وتكون الجريمة أكبر إذا شارك فى هذا الخطاب وقام بتنفيذه أولئك المثقفون الذين ينتمون إلى المؤسسة الثقافية العريقة ، أعنى الجامعة ، هذا الصرح الشامخ الذى تحكمه النظرة العلمية الموضوعية التى

تتفيّا الحق والحقيقة ، وتسعى إلى تنمية المجتمع وازدهاره ، حين يشارك بعض رموز هذه المؤسسة فى صياغة الخطاب الاستبدادى للسلطة ، عن طريق صياغة القوانين المقيّدة للحريات ، والسالبة لإرادة الناس ، والطامسة لهويّة الأمة ، والقاضية على دينها وعقيدتها ، حينئذ تكون الطامّة كبرى ، والمصيبة فادحة ، والخطب جللاً !

لقد أطلق الناس على نفر من المنتمين إلى الجامعة وصف « ترزية القوانين » تشبيهاً لهم بترزية الملابس ، حيث يقدّمون للزبون الشكل أو النموذج الذى يريده ويبتغيه ، وهؤلاء يقدّمون للسلطة ما تطلبه ليكون الاستبداد مُقنَّناً ، والاستلاب مشروعاً ، والقهر حلالاً !

إن أستاذ الجامعة يشبه القاضي الذى ينبغى أن ينحاز إلى الحق ، والحق هو التعبير عن هوية الأمة وإرادتها ، ودون ذلك هو الباطل بعينه . وللأسف فإن العديد من الزملاء قاموا على مدى أربعين عاماً - وما زالوا - بتسويغ القهر ، وتبرير الاستلاب ، وتقنين الاستبداد ، ووقفوا ضد إرادة الأمة من خلال منطق انتهازى رخيص ، وهنا يكمن لب المأساة التى تسمى مأساة المثقفين ، فلولا هؤلاء الأساتذة وأمثالهم ما استطاع المستبد أن يستأسد على الأمة ، أو ينتهك كرامتها وشرفها وعزّتها ، أو يسيّرها

حسب هواه ومزاجه، وبالتالى يعرّضها للهزائم والانكسارات والاستسلام لأعدائها والمتربّصين بها!

المفارقة أن بعضهم لم يكتف بدور «الترزى» الذى يصنع للزبون ما يريد، بل تجاوز ذلك إلى المجال الثقافى العام، ليقوم من خلاله بدور أكثر انحطاطا وإسفافاً، حيث يروّج لأفكار السلطة المعادية لدين الأمة وعقيدتها وشريعتها، ومن خلال ذلك يتقمص دور «المخبر» الذى يعمل فى أجهزة الأمن، فيقدم التقارير (المقالات) التى تحرّض على الكتّاب الأصلاء والمثقفين الشرفاء، وكأنه يقول للأجهزة المعنية: اضبطوا.. هذا كاتب غير موال، وهذا كاتب يدعو إلى الإسلام، وهذا كاتب يتكلم عن الحرية، وهذا كاتب يرفض العلمانية... إلخ. مما يدفع السلطة وأجهزتها إلى مضايقة من يشير إليه أو إيذائه، وتلك لعمرى آية فى الانحطاط والإسفاف ما عرفتها الجامعة ولا أساتذتها من قبل، فى الوقت الذى يدافع فيه كثير من الأساتذة الشرفاء عن حقوق الأمة المهضومة، ويواجهون ببساطة سلطة عاتية لا طاقة لهم بها وبجبروتها.

منذ فترة انتهز أحدهم فرصة المناخ المتوتّر بين السلطة والشعب، فراح يكتب فى المجلة الحكومية التى تصدر أسبوعياً، ليتهم كاتباً إسلاميًا معتدلاً بالإرهاب والتشجيع عليه! وهى تهمة

كافية لأن يقف هذا الكاتب الإسلامى المعتدل أمام المحاكم العسكرية ، ومن ثم إلى المشنقة ! السبب الحقيقى أن الكاتب الإسلامى تخصص فى كشف الزيف الذى يمارسه مثقفو السلطة ، وأنصار التبعية والذيلية والتغريب ، وواجه الباطل بالحقائق الدامغة والأسانيد الموثقة ، ولكن كاتب السلطة والأستاذ الجامعى صاحب المصلحة والمنفعة لم يتورع عن تقديم التقرير الأمنى والبلاغ الكيدى والوشاية الكاذبة ، ليحقق خطوة وحظوة لدى السلطة . وكانت النتيجة أن الكاتب الإسلامى مُنع عدة مرات حتى كتابة هذه السطور ، من نشر مقاله الأسبوعى فى الجريدة الكبرى التى يكتب بها !

أليست هذه مأساة ثقافية أو مأساة المثقفين بحق ؟

* * *

اقتلاع الإرهاب .. أم اقتلاع الإسلام ؟!

من المؤكد أن الحرب على الإرهاب تختلف عن الحرب ضد الإسلام . الفارق بين الحربين كبير ، فالأولى تعنى تخليص المجتمع من القتلة والسفاحين واللصوص المسلحين الذين يسلبون المجتمع أمنه وسلامته وطمأنينته ، سواء كانوا من الأفراد العاديين ، أو الجماعات المنظمة ، أو التشكيلات العصابية ، أو بعض رموز السلطة الذين يستغلون القانون والهيمنة فى التنكيل بالخصوم والمعارضين ، وحرمانهم من الحياة ، وسلبهم الكرامة ، وممارسة التعذيب البشع الذى لا تقرّه شريعة ولا يرضى به قانون ولا تسوّغه فطرة إنسانية ، أو حتى حيوانية .

الحرب على الإرهاب مشروعة يؤازرها الناس جميعاً داخل الوطن ، بل تجد خارجه من ذوى الضمائر الحية والقلوب الرحيمة من يتضامن مع أهل البلاد فى دعمها والوقوف إلى جوارها .

أما الثانية فهى حرب عدوانية تسعى إلى سلب المجتمع عقيدته ، والتشهير بها ، وبعلماء الدين ، والمتدينين ، كما تسعى إلى تصوير الإسلام وأتباعه بصورة دموية بشعة يصنعها القتلة السفّاحون ، واللصوص المنحلّون .

هذه الحرب مرفوضة، وتأباها الكرامة الإسلامية، والخلق الإنسانى المستقيم، لأنها تصادر حرية الإنسان فى الاعتقاد والتفكير والإبداع على أساس تصوّراته واقتناعه. وإذا كان الذين يقومون بهذه الحرب من غير المسلمين فالأمر بشع ورهيب ومستهجن، ولكنه طبيعى لأنه يصدر عن جهة أو جهات معادية لا تترك فرصة للهجوم إلا وتستفيد بها ومنها، أما إذا كان الذين يهاجمون الإسلام من المنتمين إليه اسماً ومولداً فالأمر أكثر بشاعة ورهبة واستهجاناً، ويمثّل خطورة قلّ نظيرها فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

السؤال المطروح الآن: هل ما يجرى فى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة تحت دعوى الحرب على الإرهاب؛ هو فعلاً كذلك؟ أم إنه شىء آخر يندرج تحت باب التشهير بالإسلام وتشويهه؟

المتابع للأعمال والموضوعات المعروضة والمذاعة والمنشورة، يأخذه الذهول حين يكتشف أنها لا تحارب الإرهاب، بقدر ما تصنع الإرهاب، وأنها لا تحارب الإرهابيّين بقدر ما تحارب المتديّنين الإسلاميين، وأنها لا تدافع عن الإسلام بقدر ما تسعى إلى تشويهه والتنفير منه، وأنها لا تخدم السلطة القائمة بقدر ما تحرّض الناس ضدّها، وأنها فى النهاية تحرص على خلق انطباع عام بأن كل من

ينتمى إلى الإسلام شكلاً أو مضموناً هو من المجرمين أو المتخلفين الذين يجب على المجتمع أن يستأصلهم من جذورهم !!

إن الصورة البشعة التى تصوّر المسلم المتديّن سفّاحاً وشاذاً ولصاً وجاهلاً ومعدوم الضمير، لا تقف عند الحدود الإقليمية التى تذاع فيها هذه الصورة، ولكنها تعطى الذريعة والمسوّغ لأعداء الإسلام والمسلمين الذين يجدّون فى كسر شوكة المسلمين وإذلالهم والعمل على إبادتهم أو طردهم من بلادهم تحت دعوى مكافحة الإرهاب أو التطهير العرقى أو الدينى (انظر مثلاً ما يجرى فى فلسطين والبوسنة وكشمير وبورما والفلبين وغانا ...) .

لقد كان العالم العربى الإسلامى يهتزّ من أقصاه إلى أدناه حين يسمع عن فيلم أجنبى أو مسرحية أجنبية أو مسلسل أجنبى يشوّه صورة المسلم أو العربى أو يظهره بمظهر غير لائق، أما اليوم فإن بعض العرب المسلمين يتطوع وينتج مسلسلات وأفلاماً تتحدث عن صورة المسلم «إرهابيًا دمويًا شاذًا»، وتلقى هذه الصورة ترحيباً وتقديراً وتكريماً من أقلام وصحف وبرامج فى بلاد عربية إسلاميّة !!

المفارقة فى هذه الأقلام وتلك المسلسلات أنها لا تقدم البديل المسلم كما تتصوّره، أو يتصوّره منتجوها، ولكنها تقدم بديلاً

منحرفاً يعيش على النمط الغربى والحياة الأوربية ، ويبتعد تماماً عن أخلاق الأمة وقيمها كما أرساها الإسلام .

ولتوضيح ذلك ، فإننا نشير إلى بعض ما قدمته أجهزة الإعلام - وبخاصة فى شهر رمضان ، حيث تزداد نسبة المتابعين للأعمال الفنية المعروضة - وقد نجح المسئولون فى توصيل مضمونها إلى أعرض قطاعات الشعب تأثيراً واستيعاباً .

قدم التليفزيون ثلاث أعمال درامية (مسلسلات) حظيت بنصيب كبير من الدعاية والضجيج ، وأفردت لها الصحف والإذاعة والتلفزة مساحات عريضة - مكاناً وزماناً - لتحليلها وتفسيرها ، ومدحها وتقريظها ، والإشادة بها وبأبطالها .. فماذا قالت هذه المسلسلات ؟

لقد قالت ببساطة إن المنتمى إلى الإسلام سفّاح شاذّ متخلّف يجب استصاله ، وأن المنتمين إلى الإسلام لا يلجأون إليه إلا نتيجة ظروف أسريّة غير طبيعية ، كأن يكون الأب سكّيراً أو مدمناً أو معدما أو نحو ذلك ، أما الإسلام بالمفهوم الذى يراه مؤلفو المسلسلات - والأفلام أيضاً - فهو النطق بالشهادتين فقط دون التزام بمتطلباتهما من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وإحسان ومعاملات تقوم على معايير الكتاب والسنّة ، أن يعيش الناطق بالشهادتين وفقاً لهواه ، فالصلاة موضة قديمة ، والزكاة ليست

مطلوبة فى عهد الضرائب ، والصوم يقلّل الإنتاج ، والجهاد عنتريات قديمة ، والمعاملات الإسلامية نصب واحتيال وتزييف ، وقس على ذلك بقية قضايا الإسلام وقواعده وأصوله وفروعه ، ناهيك عن اقتراب الإسلام من نظام الحكم أو توجيه السياسة ، فهذا من المحرمات التى لا تجوز فى القرن العشرين عند أهل المسلسلات والفن التمثيلى !

فى إحدى هذه المسلسلات تتجرأ الأم على مقام الرسول الكريم ﷺ وتقول عندما ترى أحد أبنائها وقد ارتدى جلباباً أبيض وأطلق لحيته :

« يا بنىّ ، لو كان النبىّ محمد فى عصرنا كان حيلبس الجينز » .

والمفارقة أن هذه الأم – الممثلة – لا تستطيع أن تقول هذه العبارة عن المسيح عليه السلام ، أو موسى عليه السلام ، ومع أننا نحترم النبيّين الكريمين ، فإن أتباعهما لم يكونوا ليسكتوا أو يتسامحوا ، وما كانت تبعة هذا القول ستتوقف عند الممثلة الأم ، أو مؤلف المسلسل أو مخرجه ، بل كانت ستتعدى الجميع إلى الرءوس الكبيرة والمسئولة .

وتصوير المرأة المحجبة تصويراً معكوساً يضعها فى خانة

الانحطاط والسفالة الخلقية، هدف رئيسى من أهداف مثقفى الأيام النحسات، وهاهو مؤلف المسلسل السابق، يقدم لنا نموذج الحاجة « فتحية » المحجبة، التى توقع بين زوج وزوجته لأسباب خاصة بها، وتستخدم فى الوقيعة أسلوباً لا يليق بمسلمة فضلاً عن محجبة، حيث تتلو آيات قرآنية، وتهتف « الله أكبر »، وتكرر « هذا من فضل ربى » وتتحدث عن المكاسب الحرام التى صارت حلالاً، وعن شهر العسل (قبل) الزواج، والعشرة القديمة... إلخ.

ويقوم مؤلف المسلسل ذاته بتصوير الدعاة بصورة فجّة وقبيحة وسطحية وإنشائية، ويقدم نظيراً لأحد الدعاة المشهورين ليشوه صورته فى أذهان الجمهور المتعلّق به، من خلال أسلوب مفتعل، وأراء سقيمة، والرجل ليس كذلك فى واقع الأمر.

وهناك قضايا خطيرة تعرض لها هذا المسلسل وغيره مثل التجرؤ على الفتيا، وإنكار عذاب القبر الذى عالجته الصحف والدوريات فى حينه، وتدخل شيخ الأزهر والمفتى وعلماء الدين وجمهور الناس، مما اضطر المسئولين عن المسلسل إلى الاعتذار للجمهور فى حلقة خاصّة بعد استدعاء ممثّل آخر يصحّح الخطأ الفادح الذى وقع فيه ممثل سابق.

أيضاً، فإن مقدّمى المسلسل عارضوا ضمناً تحريم الرّبا،

وحلّلوا الفوائد التى تقدمها البنوك الربوية ، من خلال التشنيع على البنوك الإسلامية ، وشركات توظيف الأمول الإسلامية ، ومن خلال الإلحاح على مسألة الفصام ين القول والفعل فى المجال الإسلامى ؛ فقد روجوا لمقولات خطيرة تتعارض تماماً مع منهج الإسلام ، ففى حوار بعض الممثلين حول البنوك يقول أحدهم :

« وهل البنوك لها دين ؟ » .

وكأنى بهم يريدون تبرئة اليهود ، ورمزهم « شايلوك » الذى صوره « شكسبير » فى مسرحيته الشهيرة ، « تاجر البندقية » ، والهدف - فيما أتصور - هو الترويج لإذعان الدولة الإسلامية لعمليات القروض الأجنبية ، وآثارها التى تستنزف ثروات المسلمين لصالح قوى الشر اليهودية الصليبية ، ورهن مصير الأمة بأيدى هذه القوى الإجرامية . والمفارقة أنك تسمع فى إطار عملية الترويج للرّبا وآثاره كلاماً غريباً مثل قول أحد الممثلين : « إحنا فى إسلام حقيقى ولاّ فى تنظيم له مصالح ؟ » .

ثمة مسألة أخطر ، وهى تملّق الأقليات غير المسلمة على حساب الإسلام والمسلمين ، وإظهار الأخيرين بمظهر المعتدين الذين يمنعون الأقليات حقوقها . إن أصحاب المسلسلات ينطلقون فى تهمتهم الخطيرة للمسلمين بأنهم يكفّرون أهل الكتاب ،

ويعادونهم، ويستحلّون أموالهم، ويعاملونهم بوصفهم مواطنين درجة ثانية، وهذه التهمة - كما يعلم أهل الكتاب أنفسهم - لا وجود لها فى الواقع، وإن كانت هناك اشتباكات بين بعض المسلمين وغيرهم، فهذه أمور طبيعية فى أى مجتمع، يشتبك فيه المسلم مع المسلم، كما يشتبك مع غير المسلم، ولكن كتاب المسلسلات حريصون على تملق الطوائف غير المسلمة لأن هذه الطوائف اليوم، تمتلك القدرة على تعبئة الدول الأجنبية المناصرة لها ضد السلطات المحلية، ومعاقبتها بالطريقة التى تروقها، وبخاصة أن هذه الدول صارت ترعى علانية كثيراً من الطائفيين المتطرّفين فى العالم الإسلامى، وتبدى اهتمامها البالغ بهم.

على هذا النحو تمضى المسلسلات التى قيل إنها تعالج الإرهاب، فتصوّر الشاب المسلم المتدين سفّاكاً للدماء، لصاً، يستحلّ مال الآخرين غير المسلمين خاصّة، يلجأ إلى الإسلام إذا كان مأزوماً اجتماعيًا، أو إذا كان باحثاً عن مصلحة أو منفعة يحققها باسم الإسلام. أما الإسلام نفسه فلم يعد صالحاً للعصر ديناً أو دنيا، والبديل هو: تقليد الغرب الصليبى بخيره وشره، بل بشرّه فقط كما أوحى لنا مؤلفو المسلسلات.

ولم تختلف الأفلام عن المسلسلات فى تناول قضيّة الإرهاب، فقد رأينا فى المعروض منها نسقاً مشابهاً لنسق

المسلسلات، وإن كانت الأفلام سافرة فى عدائها للإسلام، وإشادتها بالنموذج الغربى المنحل، وعدّه طريقاً للنجاة من الإرهاب والإسلام جميعاً، وكان هذا دافعاً للعديد من الدول العربية أن ترفض عرض الأفلام التى تناولت القضيّة، وأن تقوم مظاهرات شعبية فى بعضها الآخر احتجاجاً على الموضوع والمنهج والممثلين والمنتجين.

والسؤال هو: لماذا يهاجمون الإسلام بهذه الضراوة والوحشية تحت مسمى محاربة الإرهاب؟

إن الإجابة تقتضى حيّزاً أكبر، ولكننا نوجزها فى النقاط التالية:

أولا: تشعر الدول المعادية للإسلام فى الشرق والغرب (خاصة الصليبية اليهودية) أن الإسلام هو الخطر الحقيقى الذى يهدّد أطماعها وشرورها واستبدادها بالعالم، ومنه المسلمين، لذا تعمل على وأد كل نهضة إسلامية بالوسائل المتاحة والممكنة، وقد نجحت فى استغلال بعض الحوادث والأفكار لإقناع بعض الحكومات بخطورة الإسلام، وضرورة اقتلاعه، حتى يتحقق الأمان.. وهذا وهم باطل بالتأكيد.

ثانياً: التقت أفكار تيار التغريب والتبعية مع الإرادة الصليبية

اليهودية فى محاربة الإسلام والتشهير به . ولو تأملنا انتماء كُتّاب المسلسلات ومؤلفى الأفلام بل وبعض الممثلين والجهات المنتجة والداعمة لرأيناها جميعاً تنتمى إلى الشيوعية المنهارة ، أو الناصرية المهزومة ، أو الانتهازية المستغلة ، أو الطائفية المتطرفة ، وكان من الطريف أن يشيد أحدهم وهو مارونى متعصب بأحد مخرجى أفلام الإرهاب ، ويرى أن عبقريته تعود إلى مسقط رأس أمه المارونية فى لبنان ، بالرغم من أن والد هذا المخرج كان مسلماً مصرياً واسمه « أحمد » !

ثالثاً : انتهز بعض المسئولين ممن لهم تاريخ لا يشرّف فى عهد الإرهاب الناصرى ، وكان يشرف على ما يسمّى « البيوت الأمنية » (الدعارة للسيطرة) ، فرصة المناخ المعادى للإرهاب ، وأطلق العنان لأتباعه كى يثأر من الحركة الإسلامية والمتديّنين بصفة خاصة لأنهم كشفوا دوره الخسيس والإرهابى ، فكان إنتاج هذه المسلسلات والأفلام وإذاعتها على نطاق عريض ، ودعم المشاركين فيها ماديّا ، وتقريظهم فى الصحف والمجلات والإذاعات المسموعة والمرئية .

إن معالجة قضيّة الإرهاب ، لا يمكن أن تتم بمسلسل أو فيلم يهاجم الإسلام والمسلمين ، ولا يرى فى الدين إلا عائقاً أمام طموحات الشعوب والدول ، ومن ثمّ ، فإن هذه المسلسلات

لا تقتلع الإرهاب الحقيقى، ولا تعبئ الجمهور دفاعاً عن الحكومات، ولكنها تؤدى إلى العكس.. فالاعتداء على مقام النبوّة، وتصوير الاحتشام بالفجور، والسخرية من العبادات والمعاملات كما جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وتملّق الأقليات ومتطرفيها، كل هذا يمثل عدواناً صارخاً على الدين يؤدى إلى نتيجة عكسية، وقد يحوّل المسلم العادى المسالم إلى رجل عنف يدافع عن دينه الذى يرى أنه أهين على شاشة التلفزة أو السينما.

لقد كان من المفارقات أن يذاع فى شهر رمضان مسلسل تاريخى، حقق بصفة عامة نجاحاً فنياً وموضوعياً لا بأس بهما، وهو مسلسل «عمر بن عبد العزيز»، ومع وجود أخطاء تاريخية وقع فيها الكاتب لا تقلل من قيمة عمله، فإن هذا المسلسل لم يحظ بالاهتمام والدعاية التى حظيت بها المسلسلات المعادية للإسلام، بل إنه كان يذاع فى وقت ميت - بلغة الإعلام - قبيل صلاة الفجر، حيث يكون الناس نائمين، أو فى طريقهم للمساجد. ترى ما السرّ فى التعتيم على «عمر بن عبد العزيز»؟ هل لأنه يعالج ما يفتقده معظم المسلمين فى هذا الزمان - أعنى الشورى والعدل والحرية والنزاهة ... إلخ؟ - أم لأنه يثير فى الناس كوامن الشوق إلى حاكم من طراز فريد حقق الأمن والرخاء والمودّة والأمل فى نفوس المسلمين؟

إن من يريد معالجة الإرهاب بأشكاله كافة، عليه أن يبحث عن الأسباب الحقيقيّة والجذور الفعلية، وقد تحدثت عنها أو أشارت إليها دراسات علمية متخصصة.. أما اقتلاع الإسلام بالمسلسلات والأفلام فليس هو الحل على كل حال.

* * *

العلمانيون.. ومشكلة اللغة المزدوجة!

مشكلة المثقفين العلمانيين تكمن فى ولائهم المريب لأعداء الإسلام، ورفضهم الغريب لمعطيات العقيدة والشريعة، وهذه المشكلة لا تعبّر عن نفسها فيما يكتبون وحسب، ولكنها تظهر من خلال كتابات الأعداء عنهم، وتعاطفهم الطبيعى مع أفكارهم، واحتضانهم للكثيرين منهم فى مجالات عديدة، وبخاصة فى المجال الإعلامى، واستدعائهم للمؤتمرات والندوات التى تعقد فى أماكن شتى، داخلية وخارجية، والإغداق عليهم بالجوائز والأوسمة والزيارات والمحاضرات، وفى الوقت ذاته، فإن نظراءهم من أصحاب التصوّر الإسلامى يُواجهون بالكثير من الجهامة والمحاصرة والتشنيع والتشهير والهجاء المقذع.

منذ مدة كتب أحدهم يستنفر الفريق العلمانى لتحديد المواقف، وإعلانها صراحة، مع حثّ الفريق على الرفض الضمنى لأى حوار مع الجانب الإسلامى أو التفاهم معه بروح العلم والبحث والإقناع، وكان من حيثيات دعوته أن الفريق العلمانى هو صاحب المستقبل لأنه منفتح ومتجدد وابن عصره وزمانه، أما الجانب الإسلامى، فمنغلق ومتعصّب وجامد، ولا يقبل بالحوار أو التعدّد.

وبالرغم من موضوعية الردود على هذا الدعوة المتشنجة الظالمة، فإن القوم يستمرون فى منهجهم ضاربين عرض الحائط بكل قيمة موضوعية وفكرية تصبّ فى خانة التفاهم والحوار البناء.

ولا ريب أن أى عاقل لا بد أن يتساءل عما تثيره المفارقة الراهنة فى لغة الفريق العلمانى، حيث تتودّد هذه اللغة إلى الأعداء، وتحاول - بقدر الطاقة - أن تناقشهم فى إطار من التهذيب والرقّة والأدب الرفيع، بل تخضع لمقولاتهم وإرادتهم فى الوقت الذى تستخدم فيه الهراوة الغليظة أو «النبوت» فى حوارها مع الجانب الإسلامى، بل قل مع العقيدة والشريعة ؟!

حقيقة الأمر، تؤكد على أن القوم يريدون أن يقيموا عالماً خاصاً بهم، قد يسمّونه الإسلام أيضاً، دون أن يلتزموا بالثوابت أو ما أجمعت عليه الأمة منذ أربعة عشر قرناً، ولعل أقرب الأمثلة على ذلك، ما قاله أحدهم عن وجود أخطاء نحوية فى القرآن الكريم قام «الحجاج بن يوسف الثقفى» بتصحيحها، وذكر صاحبنا أن الحجاج صوّب ثلاثة عشر خطأ! ومعنى ذلك ببساطة أن القرآن الكريم ليس معجزاً كما اتفقت على ذلك الأمة، وكما أثبت إعجازه الواقع العملى والفعلى منذ نزوله حتى اليوم، ومعنى ذلك ببساطة أيضاً، أنه ليس وحياً نزل من عند المشرّع الأعلى

- جلّ جلاله - أى إنه بلغة أعداء الإسلام من أصحاب العقائد الأخرى موضوع ومكتوب بمعرفة النبى ﷺ، ومن ثمّ يصل صاحبنا إلى غايته بهدوء شديد فى تقويض أركان العقيدة والشريعة، ويصرّ القوم بعدئذ على تلقيبه «بالمفكر الإسلامى» وتناديه إذاعات لندن وإسرائيل ومونت كارلو باللقب ذاته، وإن راجعه أحد فى مقولاته صرح بأعلى صوته : إنهم يهدرون دمى ! ويفتون باستحلال قتلى !

هكذا تبدو لغة العلمانيّين فى مفارقتها ومنهجها، بل فى قسوتها على الجانب الإسلامى من خلال مصطلحاتها المعروفة ومزاعمها المزيفة : «التقدم»، «الاستنارة»، «التعدّدية»، «حق الآخر».

كنت أتصوّر أن تكون هذه اللغة - بالرغم من الخلاف الفكرى - موجهة إلى العدوّ المشترك الذى لا يفرّق فى عدوانه وإجرامه بين إسلامى وعلمانى، ولكنه عند الضرورة يأتى على الجميع، ولكن القوم - كما ذكرت من قبل - يؤثرونه بالمودة والرقة والخضوع لمزاعمه وإرادته، وكان طبيعياً أن يؤثرهم العدوّ بشىء من الرضا والحظوة، وأقصد هنا - بالعدوّ - العدوّ اليهودى الذى يحتل فلسطين والقدس والجولان وجنوب لبنان ويفرض إرادته وهيمنته على الجميع إلا الشهداء والمجاهدين !

فى كتابه الذى نشرته جريدة « الأحرار » اليومية مؤخراً (ابتداء من ٤ مايو ١٩٩٤) والمسمّى « مصرِ فى قلبى » يتحدث « إسحق بارموشيه » المتحدث باسم سفارة العدوّ اليهودى فى القاهرة فى الثمانينات كثيراً من الحكايات والمفارقات عن الفريق العلمانى الذى تخصص فى مهاجمة الإسلام والحركة الإسلامية بوصفهم أصدقاء حميمين . ما قاله « موشيه » لم يتعرّض – حتى اليوم – للنفى أو التكذيب من جانب شخص واحد ممن ذكرهم فى كتابه ، وهو ما يعنى أن ما قاله صحيح ، وبخاصة أنه يتكلم من داخل هؤلاء الأشخاص – أقصد من داخل بيوتهم وأسرهم – فقد كان صديقاً للجميع ، ليس على المستوى الشخصى أو الخارجى ، ولكن على المستوى العائلى أو الأسرى ، وهؤلاء الأشخاص من القلّة القليلة التى ارتضت أن تجاهر بصداقتها لأعدائنا التاريخيّين .

يذكر « إسحق بارموشيه » – وهو رجل موساد فى حقيقة الأمر – أن من بين أصدقائه المصريّين الذى توثقت صلته بهم : عبد الستار الطويلة ، عبد العظيم رمضان ، محمد سعيد العشماوى ، أنيس منصور ، فرج فودة ، صفوت عبد الحليم ، إبراهيم الوردانى ، حسن عبد المنعم وزوجته أميرة كامل ، يوسف شوقى ، حسين أحمد أمين .

من ينظر إلى هذا المجموعة يجد معظمها عنيفاً فى حملته على الإسلام والمتديّنين، ويكتشف أن الرابطة التى تضمهم هى الانتماء للنمط الغربى والكراهية للتصوّر الإسلامى بالفعل أو النشأة .. ولا يعنينا هنا من يعيشون وفق المنظور الأوربى، ولكن يعنينا من جعلوا كفاحهم موجّهاً ضد التصوّر الإسلامى والمجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية، فى الوقت الذى لا يستنكرون فيه وجود الدولة اليهودية، والمجتمع اليهودى والتصوّر اليهودى. إن دولة العدو اليهودى لا تخافت باعتمادها التوراة أو شريعة موسى عليه السلام أساساً للدولة والمجتمع، وتخضع حكومتها لما يمليه الحاخامات وما يقوله الكتاب المقدس، ولا تجد غضاضة فى توقف الحركة والمواصلات يوم السبت، ولا يخجل رؤساؤها من اعتمار الطاقية اليهودية، ويرفضون الطعام غير اليهودى، بل يفرضون فى زياراتهم للخارج تقديم الطعام اليهودى «الكوشير»، إلى غير ذلك من مظاهر تعنى أن الشريعة اليهودية - وفق تفسير الحاخامات - هى التى تحكم دولة العدوان فى فلسطين.

إن كتّابنا العلمانيين الذين لا يكفون عن هجاء الإسلام وتفسيره تفسيراً مزاجيًّا يخضع للهوى، لا تستلفتهم الظاهرة اليهودية، وهى تشن الحرب ضد المسلمين باسم التوراة، وتتوسع فى الأرض الإسلامية باسم التوراة، وتقتل المسلمين فى المساجد

باسم التوراة ، وتقيم حياة المجتمع اليهودى باسم التوراة .

لم يكن من الغريب أن يلفت انتباه « إسحق بار موشيه » ما كتبه أحدهم فى تفسير الإسلام تفسيراً مزاجيًا ، فقد أغدق « موشيه » الكثير من المدائح على هذا التفسير العجيب الذى يجعل الإسلام مجرد « ديكور » فى حياة المسلم ، لا شأن له بالمجتمع أو السياسة أو غيره ، ثم يترافع رجال الموساد عن صاحبنا مرافعة حارّة تفتقد الأساس الموضوعى والمعرفى ، ولكنها مرافعة عن صاحب قلم يخدم التفكير اليهودى المعاصر - ولو بطريقة غير مباشرة - حيث إن القوة الوحيدة القادرة على مقاومة الهيمنة اليهودية المتوحشة هى الإسلام بتصوّراته وقيمه ، وأولها الجهاد . وبالطبع ، فإذا ما ذهبت هذه القوة أو حُدِّدت إقامتها الجبرية ، فتستطيع الدولة اليهودية العدوانية أن تنتفش وتنتشر وتنتصر دائماً .

رجل الموساد فى مرافعته يتهم الصحوة الإسلامية اتهامات شتى وعديدة ، ويتحدث عن احتقارها الكلام عن الدين وتزويره (؟؟) ، ولم يقدم مثالاً واحداً على ما يقول ، وإن كان ينقل عن أحدهم أن ما يجرى فى الجوامع وفى الإذاعة والتلفزيون يخدم مزوّرى الدين فى حالات كثيرة ، وأن موجهى الصحف والإذاعات وشبكات التلفزيون يقعون بسهولة فى شباك الإخوان المسلمين

(الأحرار ١٩٩٤/٥/١٩) . ثم ينتقل رجل الموساد فى مرافعته العدوانية بأن ينقل عن المستشار الصديق مؤلف « الإسلام السياسى » مقولات وأفكار إخوان الصفا ، مثل قوله : « .. حدد إخوان الصفا (...) الرجل المسلم الكامل فى أنه ينبغى أن يكون عربى الدين (؟) ، عراقى الآداب ، عبرانى المخبر ، مسيحى المنهج ، شامى النسك ، يونانى العلم ، هندى البصيرة ، صوفى السيرة ، ملكى الأخلاق ، ربانى الرأى ، إلهى المعارف » ، ثم يعلق رجل الموساد على ذلك بأن إخوان الصفا يحددون المسلم الحقيقى بذلك الذى يكون إنساناً عالمياً ، ينفتح على كل الحضارات ، ويتقبل كل المعارف ، ويتفهم جميع الشرائع ، ويأخذ بنصيب من كل نهج ، وذلك فى مقابل ما يسمّى الأصولية الإسلامية العقلية الروحية التى يراها مؤلف « الإسلام السياسى » : « ترى تنقية الفهم الإسلامى وتنقيح الفكر السياسى بالعودة إلى القرآن الكريم وأعمال وأقوال المسلمين الأوائل فى اعتبار السلطة السياسية سلطة مدنية صادرة عن إرادة الناس وليست لها أى عصمة أو قداسة ، أما الأصولية الإسلامية الحركية فإنها تؤمن واقعياً بغير ما تقول به ظاهريا ... إلخ » (الأحرار ١٩٩٤/٥/١٩) .

وتستمر المرافعة على هذا النحو من الخلط ، الذى يكشف - إن لم يكن يطمس - الحقائق الأصلية فى الإسلام ، التى تؤكد عالمية

الإسلام وشموليته وعزة أتباعه ، وتفوقهم إذا ما تمسكوا به وعملوا بمنهجه وحققوا مقاصده .

ويلاحظ أن « إسحق بار موشيه » ، توقف طويلاً عند صاحبنا المستشار مؤلف « الإسلام السياسى » و « الخلافة الإسلامية » والمصمّم على تحويل الإسلام إلى مجرد « ديكور » للزينة وليس منهاجاً للعمل والعبادة ، وكانت وقفة « موشيه » غير عادية ، حيث ركز على أفكاره المشوّهة للإسلام ، والمفسّرة له تفسيراً مزاجياً غريباً لا يقوم على أسانيد علمية ، أو براهين منطقية ، فى الوقت الذى ترك فيه لذاكرته الحرية فى سرد حكايات وأقاصيص طريفة عن أولئك الذين يعيشون النمط الغربى ، ولم يهاجموا الإسلام صراحة ، والمفارقة لا تحتاج إلى كثير من العناء فى الفهم .. فهؤلاء أصدقاء يخدمون ما يسمى « بعملية التطبيع » أما أصحاب الجرأة فى التهجم على الإسلام فهم يخدمون بالضرورة عملية « التدمير » .. تدمير العقيدة ومفاهيمها ، والشريعة وتصوّراتها ، وهو ما يحلم به اليهود مذ كانوا فى يثرب حتى اليوم ، وإلى أن يشاء الله !

وهكذا تبدو لغة العلمانيين ، فى جانبها المعتم ضد عقيدة الأمة وشريعتها ، ومع أعداء الأمة وخصومها . وإذا كانت الأحوال السياسية فى معظم البلاد الإسلامية تحبّذ هذه اللغة اليوم ، فإن

واجب علماء الأمة ومثقفيها الحقيقيين أن يوضّحوا للناس طبيعة هذه اللغة التى تتقرّب من الأعداء فى مودّة ورقّة، وتجافى الإسلام فى خصومة وشدّة.

إن الأحوال السياسية متغيرة وزائلة، أما المفاهيم العقيدية والتصوّرات الإيمانية فراسخة ودائمة، وهو ما ينبغى أن يدركه علماؤنا ومثقفونا الحقيقيون.. ومن ثم فإن اللغة المزدوجة، أو ازدواجية اللغة عند العلمانيّين تمثّل مرضاً من أمراض ثقافتنا المعاصرة ينبغى علاجه، ومحنة من المحن التى تعانيها الأمة ينبغى الخروج منها، وبخاصة إذا كان العلمانيون هم المسيطرون على وسائل الإعلام، والنشر والمهيمنون على وسائل التوجيه والتعليم.

﴿ إنّ الّذِينَ يُحَادُّونَ الله وَرَسُولَهُ أُولئكَ فِى الأَذَلِّينَ * كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِى إنَّ الله قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢٠، ٢١)
صدق الله العظيم.

* * *

البعد الغائب

بين السمسرة الثقافية .. ومؤتمر الأقليات

لا شك أن وصف « مؤتمر الأقليات » الذى دعت إليه جماعة حقوق الأقليات M.R.G. مع ما يسمى مركز ابن خلدون للدراسات الاجتماعية ، بأنه عدوان على الأمن القومى ، ويخدم أغراضاً تخريبية ، يعد وصفاً صحيحاً ، ولا يتجاوز حدود الحقيقة أيضاً ، فإن هـذا المؤتمر وأمثاله يمثل حالة من « السـمسرة الثقافية » - وفق تعبير فؤاد زكريا فى الأهرام ١٩٩٤/٥/٢٩ - تسود حياتنا الفكرية والثقافية بوجه عام ، وتقوم على تبادل المصالح وتحقيق المنافع المادية والمعنوية بصرف النظر عن أية اعتبارات وطنية أو قومية أو عقيدية .

كان الذى أثار مثقفى هذا الزمان ؛ المسيطرين على الساحة الثقافية ، هو إدراج أقباط مصر - نصارى مصر - على جدول أعمال المؤتمر المذكور بوصفهم أقلّية تعانى الاضطهاد والتمييز ، فقد كتب « محمد حسنين هيكل » مقالاً فى الأهرام ٢٢/٤/ ١٩٩٤ ، بعد أن رفض حزب الوفد نشره فى صحيفته ، أشار فيه إلى أن الأقباط ليسوا أقلية وإنما هم جزء من نسيج المجتمع المصرى ، وأشار إلى أثر مثل هذه المؤتمرات فى اختلال العقل

والوجدان ، كما أشار إلى التمويل الهائل الذى يغدق عليها (١٠٠ مليون دولار أمريكى) فى العام الواحد ، وتقوم الولايات المتحدة وإسرائيل بالعبء الأكبر فى عملية التمويل هذه ، وأكد هيكل هذه المعلومات فى حديثه إلى إذاعة « مونت كارلو » الذى أعادت جريدة « الأحرار » اليومية نشره مرة أخرى حيث قال : « وما أخشاه أن المثقفين والعلماء كلهم الذين يشاركون فى إعداد هذه الأبحاث يدخلون فى عملية تطويع لعقولهم ولأفكارهم من خلال العمل فى هذه المشروعات » (١٩٩٤/٥/١٧) .

ثم قام الأنبا شنودة بإصدار بيان يؤكد أن الأقباط ليسوا أقلية ، وتوالت المقالات فى الصحف والدوريات تشجب وتستنكر ما فعله مركز ابن خلدون ومجموعة M.R. G. المشاركة فى موضوع الأقباط ، وفى النهاية قرر المسئول عن المؤتمر أن ينقله من القاهرة إلى « ليماسول » فى قبرص ، ويعلن أنه حذف موضوع الأقباط والنوبة بوصفهما من الأقليات المضطهدة فى مصر ، وإن كان الواقع الذى جرى فى قبرص غير ذلك ، فقد أدرج موضوع الأقباط ، وحضر مندوبون عنهم ، ولقى منظم المؤتمر أكثر من رسالة وبرقية من أقباط المهجر تشيد به وبمؤتمره .

لا أريد أن أكرّر ما ذكر فى الصحف حول المؤتمر وتمويله وطبيعته ، فقد أفاض فيه مثقفو الزمان المسيطرون على الساحة

الثقافية والفكرية ، ولكننى أريد أن أتوقف عند البعد الغائب الذى أهمله هؤلاء فى معالجة موضوع المؤتمر ، والمراكز البحثية التى تتلقى تمويلاً أجنبياً هائلاً اعترف به القائمون على هذه المراكز ، وأولهم مركز ابن خلدون الذى نظم مؤتمر الأقليات فى الوطن العربى ووضع على رأسه الأقباط والنوبة .

وأستعيد إلى الأذهان أولاً أن نقابة المهندسين بمحافظة البحيرة حاولت فى عام ١٩٩٣ أن تقيم لقاء مع نقابة الأطباء بالمحافظة داخل أربعة جدران للتضامن مع شعب البوسنة والهرسك ، وبعد الحصول على إذن من الجهات المختصة كانت المفاجأة تفريق المجتمعين بالرصاص الحىّ من جانب قوات الشرطة وإصابة بعضهم إصابات خطيرة .. ومن ثـمّ ، فإن أية جهة تحاول أن تقيم مؤتمراً يناقش حقوق الأقليات أو الأغلبيات المسلمة فى أنحاء العالم ، لن يسمح لها ، بل سيكون نصيبها الكثير من التشهير والعناء والاتهام .

فى الوقت الذى كان منظم مؤتمر الأقليات فى الوطن العربى يعترف بتمويل أجنبى لمركز ابن خلدون ، كانت الحملة الصحفية تؤكد على حرية البحث العلمى ، وتبادل المعلومات ، وتترفق فى اتهام المركز وصاحبه بالعمل لحساب جهات أجنبية .. بل أتيح للرجل أن ينقل مقر المؤتمر ، ويناقش فى تحدّ واضح موضوع الأقباط كما أراد ممولو مركزه ، بل سمح له على غير العادة ؛ أن

ينشر في الأهرام بياناً طويلاً يتحدىّ مهاجميه ويسخر من عقلياتهم، ثم يصرّح بعد انتهاء المؤتمر في قبرص بأن الأقباط في مصر يتعرضون لضغوط عديدة سياسية واجتماعية ودينية، وأن وضعهم غير مطمئن، كما طالب بالالتفات إلى ما أسماه مشكلة غياب الأقباط من مناصب حكومية كثيرة !!وعدم تطرق الكتب المدرسية للتاريخ القبطي !! كما ادعى تسخير بعض وسائل الإعلام والنشر لمحاربة الأقباط وتشجيع التطرف (يقصد الإسلامي طبعاً)، وعد الوضع خطيراً للغاية، وما لم يعالج معالجة صحيحة سيؤدى إلى انفجار غير محسوب العواقب. وهاجم الرجل من انتقدوا المؤتمر، واتهم معظم المثقفين بالجهل والغوغائية وقصر النظر، كما هاجم الصحافة والكتّاب وعلماء الدين الإسلامي !! (الأحرار ١٩٩٤/٥/١٩).

الرقّة المتناهية في التعامل مع الرجل توحي بدلالات كثيرة، ولها مغزى عميق لن نتطرق إليه، ولكن كون الرجل يعمل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وزوجه أمريكية تعمل معه في الجامعة نفسها، وأحد أبحاثه الضخمة يدور حول نصارى مصر، ودوره في مكافحة الحركة الإسلامية معروف ومشهود، كل ذلك يعطينا انطباعاً لا شك فيه حول أسلوب معاملته وانتقاده والصمت على تحدّياته.

بيد أن أخطر عناصر البعد الغائب فى مؤتمر الأقليات هو اهتمامه بما يمكن أن نسميه الأقليات المدلّلة ، وابتعاده تماماً عن الأقليات المهملة .

فالأقلية القبطية – كما تسمى – مثلاً ، من الأقليات المدلّلة ، حيث تحظى بما لا تحظى به الأغلبية من مناصب ومغانم ووجود اجتماعى وسياسى ، وصل إلى الحد الذى صار فيه بطريرك النصارى الإرثوذكس رئيس دولة مواز لرئيس الدولة الأصلى ، ويُستقبل فى البيت الأبيض الأمريكى استقبال الرؤساء وكبار الزعماء . والأقلية القبطية تحظى بحصانة لا تتمتع بها الأغلبية المسلمة ، فلا يمكن مثلاً اعتقال أحد أفرادها بتهمة « التطرف » ، أو تقديمه لمحاكمة عسكرية استثنائية ، أو تعذيبه فى السجون ، أو تأخير حلّ مشكلة له ، وهو ما يفتقده المسلمون بصفة عامة ، ثم إن النصارى يستمتعون بالثروة والأمن والوظائف الكبرى على نحو لا تعرفه الأغلبية .

ويمكن القول مثل ذلك عن المارون فى لبنان ، واليهود فى المغرب ، وعصابة جون قرنق فى السودان .

أما الأقليات المهملة ، فأمرها لا يعنى منظمى مؤتمرات حقوق الأقليات ، لأن هذه الأقليات ولو وصل تعداد بعضها إلى مائة وخمسين مليوناً ، تنتمى إلى دين آخر ، دم أتباعه رخيص جداً ، ولا قيمة له . هل سمع أحد مثلاً عن اهتمام هذه المؤتمرات

بالمسلمين فى الهند أو بورما أو الصين أو الاتحاد السوفياتى سابقاً أو ليبيريا أو غانا أو الفلبين أو اليونان أو قبرص أو غيرها ، بل إن الأغلبية المسلمة فى البوسنة والهرسك وكوزوفو والسنجق ومقدونيا لا تجد إلا التآمر ومساعدة المعتدين ؟؟

ترى من يخدع من ؟

لقد نشرت فى كتابى « الحرب الصليبية العاشرة » الذى صدر فى أوائل الثمانينيات نص تقرير « الينابيع السبعة » المتضمن « عبرنة » المنطقة ، وفقاً لنظرية « هنرى كسينجر » القاضية بتمزيق المنطقة العربية إلى دويلات طائفية وعرقية ومذهبية وتتزعمها دولة العدوّ اليهودى فى فلسطين المحتلة ، وكانت حرب لبنان وحركة قرنق والبوليساريو وحرب الخلية الأولى والقتال الضارى فى أكثر من مكان عربى مسلم نتيجة لهذه النظرية الإجرامية ، كما اشتغل التطرف الطائفى على هديها منذ ذلك الحين ، وهو ما يشير إليه البعض أحياناً على استحياء باسم « المسيحية السياسية » . لقد ازدهر هذا التطرّف فى الداخل والخارج ، ولعل ردّ الفعل لدى متطرف الخارج على مؤتمر الأقليات يوضح لنا أعماق البعد الغائب فى غمرة الضجيج الذى جرى ، لقد أرسل المتطرّف النصرانى شوقى كراز رئيس الجمعية القبطية الأمريكية برقية إلى منظم المؤتمر يهنئه فيها على قراره الشجاع بعقد المؤتمر ، ويصف من يعارضون

المؤتمر بأنهم جبناء ويسعون لمصلحتهم الذاتية ويقفون ضد طموحات الأقباط !! (ترى ما هي هذه الطموحات ؟) .

إن التطرّف الطائفى الذى تحميه قوى الشرّ الصليبية مثلاً (ديفيد ألتون عضو مجلس العموم البريطانى عن الأحرار الديمقراطيين يتبنى قضية ما يسمى اضطهاد الأقباط ويرأس مجموعة جوبيلى لحقوق الأقليات) يعنى فى النهاية ، أن السمرة الثقافية فى واقعنا المعاصر تلعب دوراً خطيراً فى تزييف الوعى ، والتدليس على الأمة ، بل خيانتها فى ظروف عصيبة نظير الفتات التى تدفعه الجهات المموّلة .

إن نسيان الحقائق الرابضة على أرض الواقع ، والتمويه على الناس لخدمة الأشرار باسم البحث العلمى ؛ يعنى أن الأمة مقبلة على مرحلة من السوء لا مردّ له إلّا بحول الله .

ومهما يكن من أمر ، فإن الموقف المتردّى لمثقفى هذا الزمان المسيطرين على الساحة الثقافية والفكرية ، ينبغى أن يستنهض همم المثقفين الذين يعنيهم أمر الإسلام والمسلمين ، لكشف الخداع والزيف الذى يملأ الساحة الثقافية ، وحتى تستبين الأمة الرشد قبل ضحى الانهيار الرهيب - لا قدر الله - وفى كل الأحوال ، فإن لله جنود السموات والأرض ، يحفظون دينه ، ويحرسون المخلصين لشريعته . والله غالب على أمره .

ظاهرة غالى شكرى تأخذ بُعداً مجنونا

غالبت نفسى ، وأنا أمسك القلم لأكتب عن هذه الظاهرة الغريبة والعجيبة فى حياتنا الفكرية والثقافية والمسماة « غالى شكرى » . فقد آليت على نفسى منذ زمان أن أكفّ عن الكتابة فى الصحف السيارة ، وأفرغ لما هو أجدى أو أكثر نفعاً فى مجال البحث والكتابة ، بعد أن اكتشفت أن هيمنة الأقلية المستبدة على حياتنا الثقافية أصبحت حالة شاذّة لا يجدى معها الحوار ، ولا يليق بأهل الجد والعمل أن يضيّعوا أوقاتهم فى الصراخ داخل البرية حيث لا يسمع أحد ولا يصغى !

ولا أستطيع اليوم ، وأنا أرى ظاهرة « غالى شكرى » تأخذ بُعداً مجنوناً ينال من دين الأمة وعلمائها ، وبنيان الوطن وتماسكه ، أن أضع قلمى ، أو أطوى ورقى ، مهما كانت قوى الحصانة التى يتمتع بها هذا الشخص ، أو جبروت الجهات التى تدعمه وتستخدمه وتدفع به إلى أتون الجريمة الفكرية والعار الثقافى .

وباختصار شديد ، فإن « غالى شكرى » يريد الآن أن يؤكد مقولة إجرامية ملخصها أن علماء الإسلام ودعاته يمثلون القناع

الذى يخفى التطرف والإرهاب ، وقد ألح على أن العلماء من أمثال الشيخ محمد متولى الشعراوى ، والشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - والدكتور محمد عمارة ، والأستاذ فهمى هويدى ، وحتى شيخ الأزهر الراحل كلهم متطرّفون ، والوجه الآخر للإرهاب والعنف والقتل والتدمير والتخريب .. الاستثناء الوحيد الذى قدمه غالى فى هذا السياق هو مفتى الديار المصرية الذى وصفته المصادر التقدمية - أى اليسارية - بالاستنارة ! (راجع مثلاً : مجلة القاهرة ، عددى يونية ويولية ١٩٩٣) .

والمقولة الإجرامية لغالى شكرى ليست وليدة اليوم ولا نبت اللحظة ، ولكنها نتاج لتراكم كتابى صنعه على مدى ثلاثين عاماً أو يزيد ، مذ كان زعيماً لخلية شيوعية تسمى حزب العمل الشيوعى ، ومروراً بعمله فى الصحف الشيوعية المصرية التى كان يصدرها الشيوعيون أو تصدرها الدولة ، حتى ذهابه إلى لبنان وليبيا وباريس ثم عودته إلى القاهرة . كان فى كتاباته مشغولاً بالفكرة التى صارت حقيقة سافرة الآن ، وهى اقتلاع الإسلام ، لا يكاد يخلو مقال من مقالاته ، ولا كتاب من كتبه من الهمز واللمز والغمز للإسلام والمسلمين ، ومن يراجع مثلاً مقالاته التى كتبها فى مجلة « الوطن العربى » التى يصدرها المرتزق اللبنانى « وليد أبو ظهر » ، يجد أغلبيتها الساحقة تحمل على الإسلام

والمسلمين بصورة وأخرى .. لماذا ؟ الله أعلم . ولكن السؤال الذى يثير الغربة والعجب هو : لماذا يشغل غالى شكرى نفسه بالإسلام ، وهو غير مسلم؟ وإذا كان من غير اللائق وطنيًا وعقيديًا أن يتخصّص كاتب فى التشهير بدين الأغلبية التى لا ينتمى إليها ، فهل هناك حرج على الأغلبية أن تنبهه ، بل تحاكمه إذا لزم الأمر ، على ما تمثله كتاباته من خروج صريح على ما يسمى الوحدة الوطنية ، وفق القانون المعروف باسمها ؟

سوف نفترض جدلاً أن غالى شكرى الذى لا يؤمن بالإسلام ؛ تشغله وتهمه قضايا المسلمين وهمومهم من منطلق إنسانى ، فهل يقف هذا الاهتمام عند هجاء المسلمين ودينهم فقط ؟ أم يقف هذا الاهتمام عند حدود دعوة المسلمين لنبذ الإسلام واعتناق العلمانية وإنشاء المجتمع المدنى (ليس ضد المجتمع العسكرى بالطبع !) الذى ينفى الإسلام ويشيّعه إلى مثواه الأخير ؟

إن « غالى شكرى » لا تعنيه المحن التى يعيشها المسلمون بحال ، وإلا لكنّا مثلاً قرأنا له ما يفيد وقوفه إلى جانب مسلمى البوسنة والهرسك الذين كانت تبيدهم القوات الإرثوذكسية الصليبية الصربية ، ثم ذهب بطارقة الكنيسة الإرثوذكسية لأداء صلاة النصر على المسلمين فى صربيا بعد انعقاد مؤتمرهم إياه فى استانبول ؟!

ولو كانت مشكلات المسلمين تعنى «غالى شكرى» لتحدث عن سرقة الحرية وإرادة الشعوب المسلمة وذبحها فى الجزائر وتونس وطاجيكستان وأذربيجان والهند وكشمير وقبرص والفلبين وبورما .. بأيدى الصليبيين والهندوس وخدامهم من الشيوعيين التقدميين وأشباههم!

ولو كانت مشكلات المسلمين وهمومهم تعنى «غالى شكرى» وتؤرقه؛ لواجه التطرف الصليبى فى مصر الذى يشعل نار الفتنة، ويسعى إلى تدمير الوطن، من خلال الجمعيات والمنظمات التى ترى فى مسلمى مصر غزاة محتلين جاءوا من الصحراء، ولا يحق لهم تطبيق الشريعة الإسلامية، ولا التعبير عن هويتهم الثقافية وشخصيتهم الحضارية، ولقال لأجهزة الإعلام التى لا ترى غير ما يسمى بالتطرف الإسلامى، إن هناك تطرفاً صليبياً إرثوذكسياً غريباً على المجتمع وعلى نصارى مصر، يعبّر عن نفسه ببناء الكنائس دون ضرورة، ويستحضر روح المعلم يعقوب الذى خان مصر وأهلها وانضم إلى قوات الاحتلال الفرنسى وحارب المسلمين «وكرنك فى الرويعى» حسب تعبير الشيخ عبد الرحمن الجبرتى.

ولو كانت مشكلات المسلمين وهمومهم تعنى «غالى شكرى» وتؤرقه لطلب من نيافة «الأنبا شنودة» أن يعود إلى

وظيفته الروحية الأصلية ، وترك السلطة الزمنية التى جعلت منه « رئيساً موازياً » يستقبله البيت الأبيض دون تأخير ، فى حين ينتظر بعض المسئولين العرب أياماً وليالى قبل أن يتفضل سيد البيت باستقبالهم وفتح الغرفة البيضاوية لهم .

ثم طلب منه أن يخفف من معارضته لتطبيق الشريعة الإسلامية ، وربطه تطبيقها بمعرفة هل الفن عند المسلمين حلال أم حرام ؟

ولا شك أن « غالى شكرى » يعلم أن ما يسمى بالفتنة الطائفية لم تأخذ طابعها الحادّ إلا عندما تولّى « الأنبا شنودة » قيادة الكنيسة الإرثوذكسية ، ولم تكثر حوادث ضرب المسلمين وذبحهم وتحريض الحملات العسكرية ضدهم بالأمن المركزى وغيره (ديروط ، منفلوط ، القوصية ، أسيوط ... إلخ) إلّا فى عهده (الزاهر !) .

لو أن « غالى شكرى » يهمه أمر الإسلام والمسلمين حقاً وصدقاً ، لطالب بالحرية للأمة ، تلك الحرية المسلوبة والمغتصبة منذ سطا الإنجليز على مصر حتى اليوم ، ولعرف أن المصريين يعانون من الكبت والقمع بصورة غير مسبوقة ، وما حرية الكلام أو النباح فى صحف المعارضة إلا وسيلة رخيصة لاصطياد المعارضين

للسلطة وحكمها الشمولى الظالم، وتصنيفهم فى قوائم لاستخدامها عند اللزوم.

صحيح أن «غالى شكرى» يتحدث عن حرية الفكر أحياناً، ولكنها للأسف «حرية الكفر» لا الفكر، والفارق بين الاثنتين كبير، فالأولى تعنى أن تتعدد الآراء وأن يعبّر أصحابها عن أنفسهم بوضوح وطلاقة، أما الثانية فهى تعنى حرمان الأغلبية من التعبير عن نفسها، وعن هويتها، وعن شخصيتها، وإتاحة الفرصة للفكر الأحادى الذى يصادر الآخر ويقمعه.

لقد اتخذ «غالى شكرى» من قضية أبو زيد (غير الهلالى) تكأة للحديث عن حرية الفكر، ورفع مقولة «التكفير فى الجامعة»، وهو يعلم أن القضية خاسرة من عدة وجوه، لعل أهمها؛ أن قضية أبو زيد مفتعلة، فهو - أى أبو زيد - يفسر الإسلام تفسيراً ماركسيًا - وليس علميا كما يدعى - وأنه أخطأ فى بداهيات منهجية لا يقترفها باحث مبتدئ (راجع تقرير د. عبد الصبور شاهين، وتقرر د. محمد بلتاجى حسن)، ثم إن أبو زيد (غير الهلالى) لا يجرؤ أن يفعل بالإنجيل أو بالنصوص النصرانية مثلما فعل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وإلا قامت قيامة الكنيسة وزعيمها وأتباعها (تأمل مثلاً الحملة الضارية على الشيخ الشعراوى عندما تعرض لتفسير الآيات التى تتناول

قصة المسيح عليه السلام فى القرآن الكريم ، واتهامه بالعدوان على النصرانية والنصارى !!) .

ثم إن « غالى شكرى » يعلم أن أصدقاءه « التقدميين » فى لجان الترقية العلمية الذين يسهر معهم وينتشى ، قد وقفوا ضد زملاء عديدين ، ومنعوا ترقيتهم ، فى انتقام رخيص بسبب الخصومة الأيديولوجية ، وأنهم ما زالوا يتآمرون ضد من يخالفهم الفكر والتوجه ، ولو كان أقدر منهم فى مجال التخصص والبحث . وإذا كان هؤلاء الزملاء الضحايا لا يجدون من يصنع لهم ضجيجاً مثل ضجيج أبو زيد (غير الهلالى) فذلك يرجع إلى سيطرة « التقدميين المستنيرين » (!!) على الصحافة والإعلام ، فضلا عن تعفف الضحايا عن النزول إلى ساحة المهاترات التى لا تتفق مع جلال العلم وشموخه ، وإن كان ذلك لا ينفى أن القصاص العادل سيأتى فى يوم ما ، على الأرض أو من السماء !

كان حريا بغالى شكرى أن يقف مع هموم شعبه المسلم ومشكلاته ، بدلاً من هجائه ومخاصمته دون ضرورة ، فقد فتح له هذا الشعب خزائنه الإسلامية ليغرف منها أموالاً جمّة ، فهناك راتبه الكبير من جريدة الأهرام الذى يعدّ أحد كتّابها الكبار ، وهناك راتبه الكبير من مجلة « القاهرة » التى يرأس تحريرها ، ويشتم على صفحاتها علماء الإسلام ، وهناك راتبه الكبير من أكاديمية

الفنون حيث يعمل أستاذاً في معهد النقد، وهناك مكافآته الكبيرة التي يحصل عليها من التليفزيون والإذاعة والندوات والمؤتمرات وكلها تفتح أبوابها له بسبب وبغير سبب، وتستضيفه ليتحدث عن الإرهاب الإسلامي والتطرف الإسلامي والظلامية الإسلامية والريح السوداء التي يكنّى بها عن الصحوة الإسلامية، كل هذه الرواتب والمكافآت في جانب؛ يضاف إليها أموال المسلمين التي يسمونها أموال النفط ويحصل منها «غالي شكري» على النصيب الكبير، وبخاصة من مجلة «الوطن العربي» التي تتقلّب - كما يقولون - بين النفط التقدمي والنفط الرجعي، وصحف الكويت وغيرها، مما صيّر الرجل مليونيراً أو أكبر، وهو الذي كان في الزمن البعيد يرجو «يوسف السباعي» أن يدبّر له سبل الحصول على بعض الجنيهات من أجل الأولاد! أرأيتم كيف يحارب «غالي شكري» الإسلام بأموال المسلمين؟!

إن «حرية الفكر» لا تعني أحادية الفكر الذي يروّجه المستنيرون (التقدميون واليساريون والماركسيون سابقاً)، بل تعني أن تجد كل الفصائل على ساحة الوطن فرصتها العادلة في التعبير والنشر والحركة، ولكن الوضع السائد الآن، هو حرية فصيل واحد يدعي لنفسه الاستنارة، ويرمي غيره - أهل الإسلام - بكل النعوت الإجرامية بدءاً من الردة والرجعية إلى التخلف والظلامية،

فضلاً عن تكفير الجماعات الإسلامية كلها بلا تفريق واتهامها بالخروج عن الملّة والدين، فعل ذلك اليسارى الشهير «أحمد بهاء الدين» ، حتى صغار اليساريين فى جريدة «الأهالى» ، كلهم وصفوا المسلمين بالكفر وكفّروهم، فهل هذه حرية الفكر أم حرية التكفير بل حرية الكفر؟

إن المستنيرين يزعمون أن علماء الإسلام ودعاته يكفّرون الناس، ويستندون فى ذلك إلى منشورات مشبوهة يقال إنها صادرة عن هذه الجماعة أو تلك، فهل يعدّ ذلك أساساً علمياً مقبولاً لتوصم الحركة الإسلامية كلها بأنها تكفر التقدميين والمستنيرين الذين لا يُصلّون ولا يصومون ولا يزكّون، ولا يحجون، ويسخرون من الثوابت والمحرمات؟

أليس من العدل أن تتاح الفرصة المتكافئة - انطلاقاً من حرية الفكر - كى تكون هنالك منابر ووسائل تعبير تطرح فيها الفصائل الإسلامية وغيرها ما يدور فى أعماقها من أفكار وآراء، ثم نحاسبها بعد ذلك على هذه الآراء وتلك الأفكار؟ أم تعتمد على المجهول ونكفّر المسلمين والحركة الإسلامية بصفة عامة؟

ثم، كيف يفهم «غالى شكرى» ويفرق بين طبيعة الإسلام وطبيعة الكفر؟ متى ارتدى العمامة الإسلامية وحصل على تصريح بالفتوى فى الشئون الإسلامية؟

إن الذى نعرفه أنه حصل على دبلوم زراعة لا يتيح لصاحبه حق الفتيا ، ثم منحه « جاك بيرك » درجة الدكتوراه من المستوى الثالث = ماجستير ، تقديراً لخدماته المنظورة وغير المنظورة ، فى موضوع ردئ يعتمد على التلفيق والفروض الخاطئة وينتهى إلى نتائج ملفقة وخاطئة ، ويتصل بالتاريخ الحديث ، ولا علاقة له بالفتيا أو الشريعة ، فلماذا يضع « غالى شكرى » نفسه فى موضع ليس له ولا يتفق مع معتقداته أو تصوّراته ، ويصّر على أن علماء الإسلام إرهابيون ويكفّرون الناس؟

إن منهج « غالى شكرى » فى معظم كتاباته منهج تلفيقى يعتمد على مقدمات غالطة ، وينتهى إلى نتائج غالطة ، وهذا ما يفسّر محاولاته الشرسة لخدمة تعصّبه وتطرفه ضد الإسلام والمسلمين ، وكان الأولى به فى كل الأحوال أن ينصرف إلى هموم طائفته ومشكلاتها ، فهناك بالفعل ما يحتاج إلى الاهتمام والمراجعة بدلاً من الاعتداء على مشاعر الأغلبية ومقدساتها ، صحيح أن السلطة قد تطلب أو طلبت منه ومن رفاقه القيام بهذا الدور القبيح الذى يستهدف اقتلاع الإسلام ، أو تحويل الإسلام إلى مجرد بروتوكول يقوم به بعض الأشخاص عند الزواج وعند الوفاة ، ولكن توجد « لغالى شكرى » مندوحة يستطيع استخدامها للتنصل من المشاركة ، وهى أنه غير مسلم !! ويبدو

أن هذا الطلب صادف هوى من نفسه « فتمكنّا » ..

ومهما يكن من أمر، فإن مصر المسلمة لن تهون ، وستظل مسلمة : ديناً للمسلمين وثقافةً لغيرهم، حتى لو بعث المعلم يعقوب حيًّا .

ومصر المسلمة ليست للبيع، والقدس أيضاً ليست للبيع .

واسلمى يا مصر ..

* * *

كتب للمؤلف

أولاً : إســـلاميـات :

- مسلمون .. لا نخجل .
- حراس العقيدة .
- الحرب الصليبية العاشرة .
- العودة إلى الينابيع .
- الصلح الأسود والطريق إلى القدس .
- ثورة المساجد .. حجارة من سجيل .
- بلطجى العراق .. ولص بغداد .
- جاهلية صدام .. وزلزال الخليج .
- حفنة سطور - شهادة إسلامية على قضايا الأمة .
- واسلمى يا مصر .
- النظام العسكرى فى الجزائر .
- ثقافة التبعية .

ثانيــاً : أدب ونقـد :

- الغروب المستحيل : سيرة كاتب م. ع . عبد الله .
- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
- الحب يأتى مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
- مدرسة البيان فى النثر الحديث .
- محمد صلى الله عليه وسلم فى الشعر العربى الحديث .
- القصائد الإسلامية الطوال فى العصر الحديث .
- موسم البحث عن هوية (دراسات فى الرواية والقصة) .
- الرواية التاريخية فى أدبنا الحديث .
- الحداثة تعـود .
- الورد والهالوك : شعراء السبعينيات فى مصر :
- لويس عوض الأسطورة والحقيقة .

ثالثا: إعلاميات :

- الصحافة المهاجرة (رؤية إسلامية) .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

من منشورات دار الفضيلة

أنور الجندي

الدعوة الإسلامية في عصر الصحوة

قضايا السياسة والاجتماع والاقتصاد

دار الفضيلة

من منشورات دار الفضيلة

أنور الجندي

أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة
التغريب والعلمانية والتنوير الغربي

قضايا الأدب والثقافة والفن

الكشف عن سموم كتب التغريب والغزو الفكري

دار الفضيلة

من منشورات دار الفضيلة

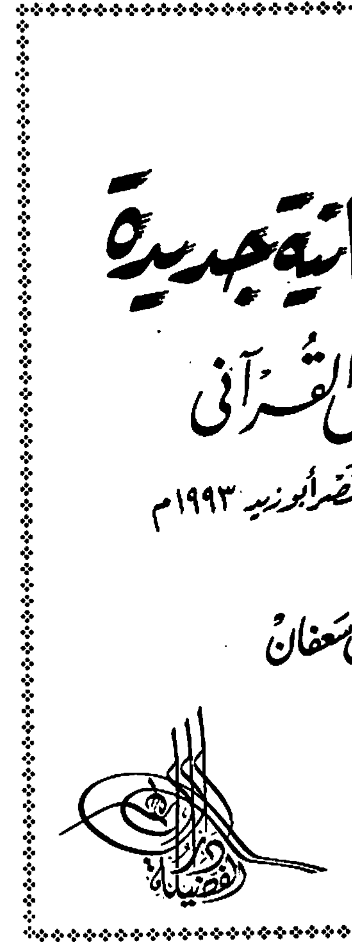
إنهم يكرهون الإسلام

هجمة علمانية جديدة

ومحاكمة النص القرآني

محمد خلف الله ١٩٤٧ - نصر أبو زيد ١٩٩٣م

د. كامل سعفان



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٧٥٤/ ١٩٩٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١